سيد الظل الأخضر

قصة سيد شهداء المقاومة الإسلامية السيد عباس الموسوي رضي الله عنه

أمراء النصر والتحرير

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

سيد الظل الأخضر

قصة سيد شهداء المقاومة الإسلامية السيد عباس الموسوي رضوان الله عليه

الكاتب: د.فؤاد مرعي

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٥٣/٢٤ . ٣٢٧/٢٥

- **قصة الشهيد:** السيد عباس الموسوي (رضوان الله عليه).
- **العنـــــوان:** سيد الظل الأخضر.
- **الكـــــاتـــب:** د. فؤاد مرعي.
- **الدرجـــة:** نالت المرتبة الأولى في مسابقة «العلماء الشهداء» التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب اللّه ورعتها مؤسسة الشهيد في لبنان.
- **الناشـر:** جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة:** الاولى حزيران ٢٠٠٣م ـ ربيع الآخر١٤٢٤هـ.

الفصل الأول

وقف الحارس تحت شرفة المبنى محاولاً تفادي حبات المطر التي انهمرت بغزارة فوق المكان. فقد اربدَّت السماء ولمع البرق في الأفق قبل أن يقصف رعدٌ شديد فضاء المدينة.

إلاَّ أن الفتى اليافع لم ينجح في اتقاء المطر الذي راح يضرب حذاءيه وساقيه. لم يبدُ غاضباً أو مُتبرِّماً. لكنه بدا يقظاً وحذراً.

بعد قليل وصلت سيارة من نوع ستايشن، أبطأت حين أصبحت بمحاذاته، كانت ماسحتا الماء فوق زجاجها الأمامي تُصدران عويلاً متواصلاً.

فتح أحدهم شقاً ضيِّقاً في النافذة وصاح:

- قادمون من الجنوب، نحن على موعد مع السيِّد.

إقترب الحارس من النافذة غر عابىءٍ برشقات المطر التي انهالت عليه. سأل والماء يقطر من ذقنه وشعره:

- من أنتم؟

إتسع شق النافذة أكثر، فرأى الحارس السائق وقد مطَّ رقبته وهو يصيح:

- كيف حالك يا حسن؟

أومأ الحارس بيده وتراجع إلى الخلف، فدخلت السيارة إلى المرآب.

في إحدى الغرف الداخلية مُدَّت سجَّادات عتيقة بألوان باهتة بعيدة. وقد خلا المكان من الأثاث والكراسي والأرائك. وحدها الجدران بدت في تناسق لافت مع لوحات مخطوطة بالأبيض والأسود.

في ركنٍ من أركان الغرفة جلس رجلان يتحادثان، كان أحدهما يلبس عمامة سوداء ويضع على عينيه نظَّارتين سميكتين. بدا بلحيته الكثيفة واستدارة وجهه مهيباً وقوراً. أما الآخر فكان عريض المنكبين، أسمر البشرة، مُلتحٍ. كانا يجلسان بمحاذاة بعضهما البعض وقد ثنيا ركابهما، وكان الرجل المُعمَّم يحمل في يده سبحة طويلة سوداء.

قال الرجل الآخر:

- سماحتك تعلم أن الساحة مليئة بعيون العدو التي وزعها في كل مكان. لذا توجَّب علينا أن نأخذ أقصى درجات الحيطة والحذر. فما زال أمامنا الكثير لكي نفعله في هذا المجال.

قاطعه الرجل المُعمَّم قائلاً:

- لكنكم نجحتم في تفكيك أكثر من شبكة للعدو! إنه بلا شك إنجاز تستحقون عليه الثناء والتقدير. فلا تتواضع يا علي! أنت بالذات تستحق التنويه.

أجاب علي:

- لقد علَّمتني يا سماحة السيِّد أن أخجل ساعة

أتلقَّى مديحاً من أحد. فأصبحتُ أحب النقد أكثر مما أحب الإطراء.

ضحك السيِّد وقال:

- عجباً! نحن نقضي عمرنا في النقد والتحليل ومراجعة الذات ونخجل من لحظة عابرة نشعر فيها بالإطراء، إننا نفعل ذلك خوفاً من أن يأخذنا الإطراء بعيداً عن التواضع.

صمت قليلاً وهو يهز رأسه، ثم قال:

- كم أود أن أقترب من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في سمو النفس والإرادة! لقد تعلَّمتُ منه أن أصعب المعارك هي تلك التي نخوضها مع أنفسنا، هل تعلم أننا بدأنا نُحرز النصر في اليوم الذي أحرزنا فيه تقدماً كبيراً في صراعنا مع الذات؟ لقد صنعنا من الضعف قوة. ومن اليأس عزيمة.

- كل هذا بفضل العقيدة، إنها تُعطي الحياة معناها، فأي حياة يعيشها المرء من دون عقيدة، أي من دون معنى؟

كان علي يصغر السيد بثلاث سنوات، وكانا قد تعارفا في النجف حيث كانا يُحصِّلان علومهما الدينية على يد السيد محمد باقر الصدر قدس سره، إلا أن علياً لم يكمل دراسته بسبب ظروف عائلية قاهرة. فقد توفي والده في حادثٍ مؤسف مما اضطره للعودة إلى بلدته في الجنوب للإهتمام بإخوته الصغار. إلى أن التقيا من جديد في

أحد معسكرات التدريب في البقاع اللبناني. كان المعسكر يضم مجموعةً من الشُبَّان المنتمين إلى جامعات ومدارس وحوزات دينية مختلفة. وكان هناك طلاب هندسة وطب وفقه وحقوق وعلوم سياسية وصيدلة وفلسفة وكيمياء وآداب وتاريخ وجغرافيا.. كانت تجمعهم قضية واحدة، وقد أمكن إقامة هذا المعسكر بفضل جهود الحرس الثوري الإسلامي الذي تطوَّع لمواجهة الغزو الصهيوني.

كانت الثورة الإسلامية في إيران بمثابة المُلهم الذي أطلق مارد المقاومة الإسلامية في لبنان، وكان السيِّد أحد القادة الأوائل الذين أسسوا لخيار المقاومة والتحرير. أما علي فقد أصبح من الكوادر الذين تعتمد عليهم المقاومة في العمليات النوعية. كان سعيداً بصحبة السيِّد. وكان الأخير لا ينفك يحدِّثه عن لقائه العظيم بقائد الثورة الإسلامية الإمام الخميني قدس سره في العاصمة الإيرانية. وكيف أن الإمام زاهدٌ في الدنيا. وأنه يسكن في بيت متواضع، ويستقبل الناس جالساً فوق سجَّادة مفروشة على أرض غرفةٍ صغيرة، وهو الزعيم - القائد والمرجع الكبير لأمة إسلامية عريقة!

كان السيِّد يُشبِّه تواضع الإمام بتواضع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. كان يقول عنه: «لدى الإمام إحساس مرهف تجاه المظلومين والفقراء. واهتمام

استثنائي بقضية العدالة بين الناس، إن له خصال أمير المؤمنين عليه السلام. بصلابته وجرأته ووضوح رؤيته في ما يتعلَّق بشؤون الدنيا والآخرة. فكم من قضية عُرضت عليه لكي يجد لها حلاً، فكان خياره قاطعاً في استناده إلى موجبات الدين والشريعة والحقوق بروحيتها وليس بنصوصها الجامدة».

لقد عرف علي الإمام الخميني قدس سره عن قرب من خلال أحاديث السيِّد عنه. هذه المعرفة جعلته في شوقٍ كبير لمقابلته والإستماع إليه، وقد وعده السيِّد بتوفير هذه الفرصة عندما تسنح الظروف بذلك.

كانت «معموديات النار» التي خاضها الإثنان في معسكر التدريب قد جعلت منهما رفيقيّ سلاح في صفوف المقاومة الإسلامية. وعلى الخلفية «النجفية» تقاربت أفكارهما وآراؤهما إلى درجة الإنصهار التام بالعبادة والتقوى.. والجهاد في كل ميادين الحياة.

دخل شابٌ ممشوق القامة إلى الغرفة التي كان بداخلها الرجلان معلناً قدوم زوار من الجنوب. نهض الرجلان لملاقاة الزائرين. تصافحت الأيدي الخشنة وتعانقت القامات المنتصبة. عن هذه اللحظات قال السيِّد لاحقاً: عندما دخلوا فاحت في أرجاء الغرفة أريج الدم المقاوم. لقد شممتُ فيهم رائحة أبي عبد اللَّه الحسين عليه السلام. لكأنهم كانوا قادمين من الجنة!

جلس الجميع على أرض الغرفة. كانوا ستة. إضافة إلى السيِّد وعلي. استعرض علي الأسماء قائلاً:

. رضا مسؤول القطاع الغربي، أحمد مسؤول التنسيق مع غرفة العمليات، ساجد مسؤول القطاع الأوسط، إبراهيم مسؤول الرصد والعمليات اللوجستية، خليل المسؤول الأمني المركزي، مصطفى مسؤول القطاع الشرقي.

كان السيِّد يعرف ثلاثة من أصل الستة، أحمد وإبراهيم وخليل، فقد سبق له أن التقى بهم فرادى في مناسبات عدة. أما الباقون فلم يسبق له أن التقى بهم. وهم مسؤولو القطاعات الثلاثة، فساجد ورضا حلاً مكان الشهيدين صلاح وحسين في المسؤولية، أما مصطفى فكان يتابع الأوضاع الميدانية في قطاعه ولم يُطلب منه الحضور إلى بيروت قبل هذا اليوم. لقد تم الإعداد لهذا الإجتماع الإستثنائي بسرية تامة، كان مطلوباً من المجتمعين أن يناقشوا قضايا هامة واستراتيجية تتعلق بعمل المقاومة، وكانت مرحلة العمليات الكبرى قد بدأت تواجه صعوبات مُعيَّنة بسبب استفادة العدو من دروس المعركة. فراح يُطوِّر أساليب مواجهته لرجال المقاومة عن طريق زرع حقول الألغام، ونصب عشرات الكمائن المتحركة، وتسيير الدوريات في كل مكان. وقد جعل سلاح طيرانه يُحلِّق فوق المناطق اللبنانية طوال الليل والنهار.

لقد بدا واضحاً أن عمليات الإقتحام أرعبته وحطَّمت معنويات جنوده. لكن في المقابل خسرت المقاومة عشرات الشهداء، وكان هدف اجتماع قادة القطاعات في بيروت درس كيفية تقليل خسائر المقاومة إلى أدنى حد. فالمقاومة إلى جانب الفاعلية والدقَّة تحرص على سلامة كوادرها.

قال ساجد:

. في العملية الأخيرة وقع الشباب في حقل ألغام. فاستشهد سبعة ممن شاركوا في المجموعة الأولى. ثم أتت المجموعة الثانية فاقتحمت الموقع وأبادت حاميته عن آخرها. لقد غنمنا معدات حربية وعثرنا على وثائق هامة. وقبل الإنسحاب بقليل وصلت تعزيزات كبيرة للعدو. فتعاملت معها وحدة الإسناد الناري، وتمكَّن الشباب من الإنسحاب دون أن تقع إصابات في صفوفهم، لقد خسرنا سبعة شهداء في عملية واحدة. إنه بلا شك رقم كبير.

كان السيِّد يستمع بإنتباه إلى تقارير مسؤولي القطاعات، وقد اكتفى بالإنصات إليهم دون تعليق. كان ينتظر لحظة الإنتهاء من عرض المعلومات وتحليلها لكي يُدلي بتوجيهاته، وقد طلب علي من المُتحدِّثين أن لا يهملوا التفاصيل الصغيرة. فكانوا يذكرون كل شاردة وواردة تتعلَّق بتقويم الموقف الناشىء عن العمليات

الأخيرة. تحدَّث رضا عن ظاهرة الحماس المتزايد لدى الناس في المناطق المحتلة للمشاركة في العمليات أو لتغطية انسحاب المقاتلين، وأشار تحديداً إلى «مثلث الموت» على الطريق الساحلي بين مدينتي صيدا وصور، حيث أحرقت القوات الإسرائيلية آلاف الأشجار في محاولة لكشف المنطقة عسكرياً أمام سلاحي الجو والمدفعية.

أضاف: «لكن العمليات تواصلت بالرغم من كل هذه الإجراءات وذلك بفضل الوعي الإستثنائي الذي أظهره الأهالي. فعلى سبيل المثال حين قام بعض الجنود بسرقة عدد من الأبقار من مزرعة أحد المواطنين، رفض الأخير الحديث عن خسائره المادية واقترح بدلاً من ذلك استدراج الجنود لسرقة ثانية تكون مميتة هذه المرة. فقام أحد كوادرنا بزرع عبوة ناسفة داخل المزرعة وطلبنا من صاحبها إقفال بوابتها الرئيسية. وراح رجالنا يراقبون المكان. مر أسبوع دون أن يحدث شيء، إلى أن جاؤوا في إحدى ساعات الفجر على متن شاحنة عسكرية، كانت إحدى فرق الإستطلاع تراقبهم عن كثب، خلعوا البوابة الخارجية، وما إن حاولوا التقدُّم باتجاه الداخل حتى انفجرت العبوة وتعالى صراخهم. لقد اعترفوا بقتيل وثلاثة جرحى، في حين أحصى الشباب أربعة قتلى وخمسة جرحى تطايرت أشلاؤهم في فضاء

المكان. كان بإمكاننا الإجهاز على جميع أفراد القوة المعادية بصلية أو صليتين من الرشاشات لو كان رجال فرقة الإستطلاع مُسلَّحين، هذه النقطة تستحق الدرس.

حين فرغ مسؤولو القطاعات من عرض تقاريرهم الميدانية أصغى الجميع إلى كلام السيِّد حول الأوضاع العامة. قال لهم بعد استهلَّ كلامه بالبسملة والصلاة على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وعلى آل بيته الطيبِّين الطاهرين عليهم السلام:

- أنتم تعلمون أن أرضنا قد استُبيحت من قبل جيش الإحتلال الصهيوني. لقد أتوا إلينا بدباباتهم وطائراتهم وبوارجهم. وهم بذلك وفَّروا علينا عناء الذهاب إليهم في فلسطين، لقد شاء اللَّه سبحانه وتعالى أن تنتصر الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩. وأن تشكِّل دولتها الفتيَّة الرافعة الإستراتيجية التي كنا نحتاجها لبناء قوانا الذاتية، فبعد أن بدأنا من الصفر أصبحنا الآن نشكِّل رقماً صعباً.

فماذا حققنا في هذه الفترة الوجيزة؟ لقد استطاعت المقاومة خلال فترة قصيرة أن تقلب الأوضاع من حالة التراجع والهزيمة إلى حالة الهجوم المضاد والإمساك بزمام المبادرة، إن هذا التحوُّل هو انجازٌ كبير. وإن استجابة الأهالي لمقتضيات حرب التحرير والمقاومة المسلَّحة هي في أعلى درجاتها كما أشرتُم في تقاريركم

الميدانية. وإنني أحيطكم علماً بأننا نقدِّر انجازاتكم عالياً. فنحن نواكب عملكم ساعة بساعة. وإنني أبلغكم أننا نلقى دعماً سياسياً مفتوحاً من حلفائنا في الجمهورية الإسلامية وسوريا، ومن كل القوى الوطنية اللبنانية والفلسطينية والعربية. وقد صدرت الأوامر بتلبية طلباتكم من العتاد والذخيرة وكل وسائل الدعم ضمن الإمكانات المتوفرة. ولستُ بحاجة في هذا المجال لكي أوصيكم بالإقتصاد والتوفير حتى لا تضيع رصاصة واحدة في غير مكانها، لستُ بحاجة إلى تذكيركم بأهمية الحفاظ على علاقات وطيدة مع أهلنا في المناطق المحتلة والمحرَّرة. فالمقاومة في بيئتها الشعبية كالسمكة في الماء، إذا ما خرجت منه تموت. أما العدو فهو كالوحش الضاري الذي لا يُحسن السباحة، فإما أن يغرق وإما أن ينفد بجلده ويهرب. فلا تدعوه ينفد بجلده. وأود أن أشدِّد هنا على أهمية الإلتزام بأحكام الشرع في كل ما نقوم به من أعمال وتصرفات. خاصةً بما يتعلق بممتلكات المواطنين التي قد تضطرون لاستخدامها دون إذنٍ منهم، أطلبوا مسامحتهم عندما تسنح لكم الفرصة. وأعيدوا لهم أغراضهم مهما كانت صغيرة. حتى الصحن أو الملعقة أو السكين يجب إعادتها إلى أصحابها. يجب أن يُدرك الجميع أننا أصحاب قضية وليس مجرد مقاتلين على أرض المعركة، لكن

الأهم من ذلك كله هو أننا سوف نُحاسَبْ على كل شيء يوم القيامة.

أخيراً أطلب منكم أن تأخذوا بعين الإعتبار أننا قادمون لنشارككم في العمليات. فلا أخفيكم أن القيادة قد اتخذت بالإجماع قراراً يقضي بالسماح لكل المسؤولين بالنزول إلى ميدان المعركة شرط أن يكونوا موزَّعين على عمليات مختلفة. فانتظرونا بإذن اللَّه، والآن هناك من ينتظركم في غرفة العمليات المركزية، وفقكم اللَّه وتذكروا قوله تعالى: «إن ينصركم اللَّه فلا غالب لكم» صدق اللَّه العظيم.

كان السيِّد واحداً من القلائل الذين كانوا يملكون أسرار عملية التحول الكبرى التي تشهدها البلاد. وما هذه الغيوم السوداء التي خيَّمت فوق بيروت في تلك الليلة سوى أطياف لغيوم العدوان الكبير الذي أفضى إلى هطول أمطار المقاومة على رؤوس الذين قالوا إنها «نزهة إلى عاصمة عربية».

بدا الرجل الثلاثيني منهمكاً بملاحقة القضايا الكبيرة. لكن فكره كان مشغولاً في الوقت ذاته بأمور أخرى صغيرة. فمهما كان الإنسان قوياً في مواجهة التحديات إلا أنه يصبح كتلةً من الأحاسيس والعواطف عندما يتعلق الأمر بشؤون عائلته. لقد ترك لأم ياسر أمر رعاية الأطفال فيما ذهب هو إلى حيث يجب أن

يكون، لكن الأولاد يكبرون، وأحياناً يتعرَّضون لحوادث شتى. وغالباً ما يمرضون، تماماً كما حدث لياسر في الليلة التي عُقد فيها اجتماع الكوادر في بيروت.

اتصلت أم ياسر بزوجها وأخبرته أن ابنهما البكر يعاني من نزلة صدرية حادة، وأن الطبيب وصف له العلاج اللازم وأخضعه للمراقبة، كانت سيماء وجهه تشي بالقلق، ولاحظ علي هذا التغيُّر بعد أن انفضَّ الإجتماع، قال له:

- أراك شارد الذهن، في حين كنت قبل قليل منشرحاً وسعيداً، فماذا جرى؟

نظر في عيني علي مباشرةً وتنهَّد قائلاً:

- هل تعرف كم أنا ضعيف أمام أولادي؟ إن ياسر مريض، لكنني لستُ خائفاً عليه، بيد أنني خائف من ألاَّ أتمكن من اعطائه الوقت الذي يحتاجه ليكبر ويصبح رجلاً، إنه يعيش مع والدته وإخوته على صدى حضوري، فأنا لا أحضر كثيراً إلى البيت، لكنني أشعر بآلامهم الصغيرة، وعبرهم أشعر بآلام كل الإخوة والأخوات الذي ألتقيهم، لقد كُتب علينا أن نعيش بعيداً عن أُسرنا. لكننا في هذا الوقت نكون قريبين من اللّه سبحانه وتعالى، وعندما نشعر بقربنا منه تطمئن قلوبنا، مع ذلك فنحن بشر. نحن من لحمٍ ودم، وأولادنا هم أكبادنا، فكيف لا نشعر بآلام الأكباد؟

ثم صمت بعد أن أطبق جفنيه حابساً دموعه.

أدرك علي أنه بحاجة إلى الراحة. فهو يعلم أنه لم ينم منذ ما قبل الأمس، وها هو الصباح يوشك على الطلوع، قال مخاطباً إياه:

- آن لك أن ترتاح، إنك بحاجة إلى النوم لكي تستعيد نشاطك، سوف أراك لاحقاً.

لم ينتظر جوابه، فخرج تاركاً إياه في الغرفة.

كان الظلام دامساً في بيروت، وكانت الريح تصفر في الشوارع الكئيبة، وكان بإمكان عدسة ذكية في يد مُصوِّر مبدع أن تلتقط لحظات نادرة لمدينة تستعدُّ لاستقبال الأمطار والعواصف برايات سوداء، إنها ليلة شتائية من ليالي بيروت ما بعد الإجتياح الإسرائيلي، تحديداً بعد الإجتياح بسنتين، كانت طرق المواصلات قد ضُربت وانسحب جيش الاحتلال إلى أماكن تجمُّع تُشبه الجحور، لكنه حين صعد إلى قمم الجبال كانت المقاومة قد حكمت عليه سلفاً بالهزيمة، ففي الوقت الذي كانت فيه غرفة العمليات مُضاءة عند الخامسة فجراً كانت بيروت ترتجف من البرد. لكنها لم تعد ترتجف من وطأة أقدام العدو، فهذه الأقدام جرى تكسيرها منذ سنتين على أرصفة المدينة فراحت تُسابق الريح نحو الجنوب ظانَّةً أن رؤوس الجبال تحمي جيش الإحتلال من بنادق المقاومين.

الفصل الثاني

صقيع البقاع القارس يقرص الوجه، ومن الجبل البعيد تسرح برودة وضباب، فيما فجر الصباح يشرع لتوهٍ بنشر صبغته البرتقالية، كانت المرأة ذات المعطف الرمادي تدفع أمامها عربة بدولاب أمامي، مرَّت بمحاذاة البيت وانعطفت نحو الطريق الضيِّق.

فجأةً توقفت عن المسير. أنزلت قائمتي العربة الخلفيتين، نفخت في كفيَّها بقوة لكي تدفئهما، وتقدَّمت خطوتين إلى الأمام، وحين انحنت لكي ترفع شيئاً ما عن الأرض سمعت صوتاً مفاجئاً يقول لها:

- ماذا تفعلين يا حاجة فاطمة! ما هذا الشيء الذي ترفعينه. جفلت من الصوت ومن نسمة الريح التي هبَّت في تلك اللحظة. أعادت يدها الممدودة، رفعت رأسها وهي تقول:

- لقد أرعبتنِي!

نظرت إلى المرأة صاحبة الصوت وقد أطلَّت من زاوية البيت المقابل. لمحت من بعيد سيارة جيب عسكرية تقف في أقصى طرف الشارع حيث تنتهي القرية ويمتدُّ سهلٌ صخريٌ إلى أسفل الجبل.

أدركت على الفور العلاقة التي تربط ما بين الشيء الذي وجدته على الأرض وسيارة الجيب، قالت للمرأة

الأخرى، فيما كانت الإثنتان واقفتين قرب حقيبة زيتية مُعفَّرة بالتراب.

- لقد أضاعوا الحقيبة يا زينب.

فأجابتها:

- هل سمعتِ أصوات الطلقات في الليل؟ كانت بلا شك بعيدة، لكنني لم أنم ليلة البارحة.

- وهل نمنا نحن؟

- إرفعي هذه الحقيبة وتعالي.

- إلى أين؟

- إلى منزل الحاجة خديجة. هناك يُعدوُّن المناقيش والفطائر.

مشت المرأتان بين صفَّين من البيوت الواطئة يفصل بينهما ممر ترابي لا يخلو من بعض الحجارة والصخور. كانت الأصوات تتناهى إلى سمعهما بشكلٍ متصاعد كلما اقتربتا من البيت المقصود، وحين اجتازتا عتباته الحجرية إلى البهو الفسيح، لفحتهما نسمات الدخان الصاعد من الموقد، والتي سرعان ما بردَّها الصقيع.

استقبلت النسوة المرأتين ببشاشة.

- تعاليا إلى هنا، لكن ماذا بيدكِ يا حاجة فاطمة؟

هتفت الحاجة خديجة.

- لقد أضاعوا حقيبتهم. وجدناها على الطريق.

- أظن أنها مليئة بالرصاص! قالت إحدى النسوة.

- اسكتي! هذا ليس من شأنكِ.

نهرتها الحاجة خديجة وهي تأخذ الحقيبة من يد الحاجة فاطمة.

قالت زينب:

- هل نمتم ليلة البارحة؟

تعالت الأصوات مؤكِّدة جميعها أن ليلة البارحة لم ينم أحد في القرية، قالت الحاجة سكنة وهي تغرُف من جاط الكشك:

- لقد ظن زوجي أن الإسرائيليين يهاجمون «البيدر» عند سفح الجبل، لم نعرف أنها عمليات تدريب إلا عند طلوع الفجر، تصوروا أن المعسكر دام أسبوعين ولم ندرِ بوجودهم إلا الليلة!

- أما أنا فقد علمت بالأمر، لكنني كتمتُه.

قالت الحاجة خديجة وهي تحاول إخفاء ابتسامتها.

- لكن كيف علمتِ؟ كان عليكِ أن تُخبريني أنا على الأقل! صاحت زينب.

- لم يكن بوسعي أن أفضح السرِّ، لقد تركوا أغراضهم وحاجياتهم في منزلنا، وقد أوصاني الحاج أحمد بأن أكتم الأمر، لقد أعددتُ لهم الطعام. قالوا أنهم لم يأكلوا مثله في حياتهم.

كانت الحاجة خديجة تتحدَّث بمباهاة، ولا عجب في ذلك، فقد كانت قضية المقاومة من القضايا التي آمنت

بها المرأة البقاعية، مما جعلها تدفع بأبنائها إلى ساحات القتال ضد العدو.

استمرت النسوة بالحديث عن أسرار الليلة الفائتة، وعن المعسكر الذي أُقيم بالقرب من قريتهن، حتى أطلَّت شمسُ البقاع من وراء الجبل الأشم فراحت الحياة تدبُّ في القرية شيئاً فشيئاً. كان باستطاعة الزائر الغريب أن يلحظ نشاطاً غير عادي في ذلك اليوم، لكن هذا الزائر لم يكن له وجود حقيقي بسبب أن القرية هي آخر القرى التي تقع على الحدود ما بين لبنان وسوريا، ولم تكن مقصداً للزوار الغرباء إلاَّ نادراً.

قرابة الساعة الحادية عشرة تحلَّق عددٌ من الرجال حول بركة الماء في الباحة الخارجية لمنزل الحاج أحمد. وهي باحة رُصفت أرضها بالباطون، ما خلا فسحات ترابية زُرعت فيها شجيرات بدت عارية تحت شمس شباط وصقيعه،

قال علي:

ـ في الجنوب تُثلج أيضاً، لكن بردنا لا يشبه برد البقاع، لقد جعلني الصقيع أقفز باستمرار لكي أُدفىء قدميَّ.

علَّق حسين على كلامه:

ـ عليك أن تقضي شتاءً بأكمله في البقاع لكي تعتاد على الحياة هنا.

ـ لكنكم لا تشبهون أهل الغرب في شيء! يُقال أنهم باردون كطقس بلادهم. أقصد أنهم كذلك في مسألة العواطف والعادات والتقاليد.

قال علي متسائلاً وقد بدا أنه ذهب بعيداً في تفكيره، أجاب حسين:

ـ أهل الغرب لا يعرفون عادات الضيافة والكرم. فنحن بقدر ما نحب ضيوفنا بقدر ما نكرمهم، أما اليوم فإن بيت الحاج أحمد مفتوح لنا، ليس كضيوف، وإنما كأبطال للوطن، هذا يعني أن الضيافة مُميَّزة، ويعني أنها لا تقتصر على تقديم الطعام والشراب، وإنما الإحتفاء أيضاً بتخريج دفعة من المقاتلين، إنه نهارٌ مبارك، لكن، ها هو السيِّد قادم فلنستمع إلى رأيه.

رفع حسين صوته عمداً حين لفظ جملته الأخيرة.

رمى الرجل القادم سلامه على الجميع:

ـ السلامُ عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

رد الجميع بحفاوة:

ـ وعليكم السلام.

قال علي:

ـ كنا نتحدَّث عن أهل البقاع وعاداتهم وتقاليدهم، وكان حسين يقول: أننا لا نشبه أهل الغرب إلاَّ في درجة الصقيع في شهر شباط، فهل توافقه الرأي؟

مسَّد السيِّد لحيته بيده، رتَّب جلسته على العتبة

الواطئة حيث جلس هذا الجمع من الرجال وقد ظهر التعب على وجوههم وبان الشوق إلى النوم في عيونهم.

كانت «سدور» المناقيش بالزعتر والكشك وفطائر السبانخ قد بدأت تصل إلى الحاضرين، تبعتها جاطات البندورة وصحون الزيتون والقِثاء المكبوس، ثم أخيراً فناجين الشاي، نظر السيِّد إلى الحاضرين وكان وجهه مُشرقاً، ثم تطلَّع صوب علي فوجده يحدِّق فيه منتظراً إيَّاه أن يبدأ الكلام، قال:

- نعم هناك فوارق بيننا وبين أهل الغرب في العادات والتقاليد. لكن مع الأسف ليس هناك من مجال للتفاعل إذا ما استمر الغرب ينظرون إلينا كمستعمرات أو كأسواق تجارية. إن الحرب التي نخوضها اليوم لا تنتهي عند حدود تحرير الأرض من الإحتلال، وإنما تتعدَّى ذلك إلى تحرير الإنسان من علاقات التبعية، انظروا ماذا حصل في إيران؟ لقد انقضَّ الشعب على حكم الشاه الظالم المتحالف مع الغرب، بهذا أثبت الإيرانيون أنهم يستحقون الحرية، لقد دفعوا أثماناً باهظة من أجل تحقيق هدفهم، نحن اليوم نقتدي بثورتهم، بالأمس أنهينا معسكر التدريب. لم يكن الأول، ولن يكون الأخير، حتى التدريب له أثمان، في الدورة الأولى استشهد أحد الإخوة. وفي الليلة الفائتة جُرح ثلاثة. لكن، قريباً سوف تسمعون أخباراً طيِّبة عن

المقاومة، سوف تدركون أهمية معسكرات التدريب. وأهمية احتضان الأهالي لنا، إن هذا البيت الذي استضافنا وهيأ لنا حاجاتنا الضرورية قد ساهم في دعم المقاومة، وتلك النسوة اللواتي شاركن في إعداد الطعام للمقاتلين، قد ساهمن في التحضير للعمليات الجهادية.

كان السيِّد يتحدَّث فيما كان الجميع صامت. لم يكن أحد قد بدأ بتناول الطعام، على الرغم من أن الجوع كان حاضراً بقوة بعد ليلة طويلة من الأشغال الشاقة والعمل المضني، إنتبه فجأةً لهذا الأمر فقال:

- بلغني منذ قليل أن حالة الجرحى مُرضية، وقد تكلَّلت العمليات التي أُجريت لهم بالنجاح، الآن أصبح بإمكاننا أن نأكل بشهية، فلننهِ هذا الواجب المفروض علينا تجاه أجسادنا قبل أن نذهب لعيادة الجرحى.

بعد أن فرغوا من تناول الطعام ركبوا السيارات متوجِّهين صوب مدينة بعلبك، من هناك ذهب بعضهم مباشرةً إلى بيروت، البعض الآخر توجَّه إلى الجنوب، فيما توجَّهت السيارة التي أقلَّت السيِّد وعلياً إلى أحد مستشفيات المنطقة.

كانت السيارة تشق طريقها وسط صفين من الأشجار السامقة حين قطع علي صمت السيِّد بسؤاله:

- ألم تُلاحظ أننا اجتزنا مفرق «النبي شيت»؟ ألا تُفكِّر بزيارة عائلتك؟

رد السيِّد بهدوء:

ـ أود أن أعود الجرحى أولاً، إنهم مسؤوليتنا، لا أُخفي عنك أن حالة أحدهم حرجة، لقد تلقيتُ اتصالاً هاتفياً بهذا الشأن. كم يؤلمني أن يستشهد أحد من الإخوة بعيداً عن ساحة الجهاد!

ـ لكن معسكرات التدريب هي ساحات للجهاد أيضاً!

ـ هي حقاً كذلك، لكن الشهيد يسقط فيها حاملاً في قلبه غصَّة.

ـ لقد عثرتْ بعض النسوة على حقيبة عسكرية لأحد الإخوة أظن أنها وقعت من سيارة الإسعاف.

سأل السيِّد باهتمام:

ـ لمن هي؟

أجاب علي:

ـ إنها للشيخ حمزة.

لمعت عينا السيِّد ببريق غير عادي.

قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ حماك اللَّه أيها الشيخ الشاب.

حين وصلت السيارة إلى مدخل المستشفى لاحظ من بداخلها حركة عادية جداً. أناس يروحون، وآخرون يجيئون ولا يبدو على أحد منهم ما يشير إلى خطبٍ ما، لكن الأمور في الداخل لم تكن كذلك، تحديداً في غرفة العمليات، في هذا المكان كانت الدقائق تُقاس بعدد

نبضات القلب، كان الزمن يمضي ببطء يُقاس بأعشار الثانية.

صعد السيِّد وعلي إلى الطابق الثاني حيث كان يُعالج جريحان في غرفتين منفصلتين. وقد استرعى انتباه السيِّد سؤال كل منهما عن مصير الشيخ حمزة، فقد نُقل الثلاثة في سيارة إسعاف واحدة بعد انفجار القنبلة اليدوية، كان جهاد وأسعد في كامل وعيهما، فيما دخل الشيخ حمزة في غيبوبة.

قال السيِّد وهو يُغالب دموعه في ممر المستشفى:

ـ لقد سألا عن الشيخ! إنهما نموذجان حيَّان عن شباب المقاومة.

أجاب علي باعتزاز:

ـ علماً أنهما كادران جديدان! فجهاد يدرس الفيزياء في الجامعة اللبنانية، وأسعد يدرس الهندسة في الجامعة العربية، لقد انخرطا في صفوف المقاومة في تشرين الأول الماضي، وهما تابعان لوحدة الشهيد «أكرم العاملي».

أمضى السيِّد وعلي ثلاث ساعات كاملة في المستشفى، رفضا أن يغادراها قبل أن يطمئنا إلى صحة الشيخ، كانت الدقائق تمر بتثاقل، وكانت وجوه الأطباء والممرضات تجعل القلوب في حالة من الاستنفار المُقبض.

في الرابعة بعد الظهر خرج طبيب الإنعاش من غرفة العمليات متجهِّماً، وحين وقعت عينا السيِّد عليه عرف الحقيقة فوراً.

قال الطبيب بحزن:

ـ لقد فعلنا كل ما بوسعنا، لكنه أسلم الروح، البقاء لكم.

خيَّمت لحظات من الصمت على المكان، نظر كلٌ من السيِّد ورفيقه إلى الآخر دون أن ينبسا ببنت شفة. بدا وكأنهما لم يصدِّقا الخبر، كانا قد شرعا بالدعاء من أجل الشيخ، لكن إرادة اللَّه كانت فوق كل إرادة، وحين تقضي مشيئته أمراً فلا يستطيع أحدٌ أن يحتجَّ ويعترض.

في اليوم التالي ـ وكان نهار جمعة ـ سار موكب التشييع في الشارع الرئيسي لبلدة الشيخ حمزة الواقعة في البقاع الشمالي قرب نهر العاصي، ولدى وصول الجثمان إلى جبَّانة البلدة صلى عليه السيِّد أمام مجموعة من الرجال تقدمهم رفيقه علي، كان الأخير يدرك ما أصاب السيِّد من إجهاد وتعب، فهو لم ينم منذ ليلتين، باستثناء ثلاث ساعات استلقى خلالها على سرير خشبي في منزل الحاج أحمد، وكان قد جلس في المستشفى منتظراً أخبار العملية التي أُجريت للشيخ.

بيد أن أكثر ما صدَّع كيانه وأدمى قلبه كان ذهابه إلى منزل ذوي الشيخ لكي يزفَّ إليهم نبأ استشهاد ابنهم الشاب عن عمرٍ يناهز الخامسة والعشرين، كان علي قد اعتاد على هذه المواقف، فكم من مرة وقع عليه الإختيار لكي يزف إلى الأهالي أبناءهم الشهداء الذين سقطوا في العمليات الجهادية، لكنه كان يعلم مدى وقع تلك المواقف على نفس السيِّد، ومدى انقياده لعاطفته التي تضاهي عاطفة جدِّه الحسين عليه السلام، لذا وقف إلى جانبه يسانده في القيام بالواجب حتى انتهت مراسم التشييع. بعدها رجاه علي أن يذهب إلى «النبي شيت» لكي يلتقي بأسرته ويحصل على قسطٍ من الراحة، لكن حين ذهب السيِّد إلى بلدته لم يكن يعلم أن علياً سوف يُعطي الأوامر سريعاً لكي تحمل العملية الجديدة للمقاومة اسم الشهيد «الشيخ حمزة»، لقد أراد أن يفاجئه ويرفع عنه بعضاً من أحزانه، وأراد قبل كل هذا أن يُكرِّم الشيخ الشهيد على طريقته.

توافد أهالي «النبي شيت» إلى منزل السيِّد حالما ذاع خبر وصوله إلى البلدة، لم يكن ممكناً كتم هذا الأمر عن الناس، ولم يكن السيِّد ليقبل بأن يزور بلدته بعيداً عن أعين سكانها، فلقد أحبَّ أبناءها، فبادلوه هم المشاعر ذاتها، كانت علاقة مثالية بين رجل كبير بعلومه الدينية، نصير قوي للفقراء والمستضعفين، ابن وفي لبلدته، وبين

ناس يشبهون في ملامحهم وطبائعهم أرض البقاع الطيبَّة، فبقدر ما أحبوا أرضهم زرعوها وعاشوا من خيراتها، وبقدر ما أحب هو الأرض كان يتحدث عنها ويأبى أن ينساها، كان كلما أتى إلى «النبي شيت» وجد لديه بعض الوقت ليقوم بجولة في الحقول يطلِّع فيها على أحوال الفلاحين وأعمالهم، كان يحاول مساعدتهم عن طريق إسداء نصيحة أو شد همَّة أو ضربة معول، بدا تصرفُّه هذا طبيعياً، فهو عاشق كبير للأرض.

لذا أحبه الفلاحون، أدركوا بحسِّهم الفطري العميق أن هذا الرجل يحمل في ثناياه قلباً مفعماً بحب البسطاء والفقراء، رأوه بسيطاً مثلهم، سمعوه حكيماً ككبار العلماء، خبروا ذكاءه وفطنته، لهذه الأسباب تقاطروا إلى منزله لإلقاء التحية عليه، لم يُبدِ أي ضيقٍ بهم، ولم يُظهر أية عجلة في إنهاء اللقاءات التي تتالت معهم. كل هذا وهو يعلم أن زيارته ستكون قصيرة، وأنه مشتاق إلى الأولاد وإلى الكنف العائلي الدافىء. وهو يعلم أيضاً أن ابنه ياسر مريض، وأنه بحاجة للتحدث مع أم ياسر عن العديد من الأمور.

استمع إلى الأهالي وهم يعرضون مشاكلهم الخاصة، طالبين منه النصح والإعانة، واستمع إليهم وهم يقترحون عليه بعض المشاريع العامَّة المُفيدة للبلدة، وهم يهتفون بالدعاء لرجال المقاومة الأبطال، كان يعلم مدى

استعدادهم لإرسال أبنائهم للقتال من أجل تحرير الأرض، تلك التي عاشوا حياتهم مُلتصقين بها.

كانت أكواب الشاي تروح وتجيء في المنزل المتواضع المُطل على سلسلة جبال لبنان الشرقية، وكان السيِّد لا ينفك يجيب عن أسئلة محدِّثيه، شارحاً لهم هذه النقطة أو تلك برحابة صدر، لم يدرك أحد من الحاضرين مدى التعب الذي يعانيه من جراء العمل المتواصل، وحدها أم ياسر كانت تدرك هذا الأمر، لقد دعت في سرِّها لكي تنتهي هذه المقابلات بأسرع وقتٍ ممكن، رأت نفسها تعيش صراعاً داخلياً بين رغبتها الصادقة بأن ترى السيِّد يعالج أمور الناس، ورغبتها الدفينة بأن تراه يأخذ قسطاً من الراحة. مع كل هذا فقد أخفَتْ قلقها وتوترها الداخليين عن أعين الناس. كانت تحترم رسالة السيِّد وتؤمن بها، هي نفسها كانت صاحبة رسالة، فلقد انشأت «حوزة الزهراء» بدعم وتشجيعٍ منه، كانت تستقبل الأخوات اللواتي كُنَّ يرغبنَ في زيادة معارفهن الدينية، استطاعت أن توفِّق بين واجباتها العائلية في المنزل وبين عملها في الحوزة، لم تتذمَّر في يومٍ من الأيام من تعب أو من جهد، لكنها كانت تعرف أن أبا ياسر بحاجة إلى بعض الراحة، إلى بعض الهدوء، إلى ساعات قليلة لنفسه أو لعائلته، لكن أنَّى له أن ينال فرصةً كهذه؟

دخل وفدٌ مؤلف من خمسة رجال كبار في السن، بدت على وجوههم إمارات الاهتمام والجديَّة، جلسوا بهدوء، تنحنح كبيرهم في مجلسه وتحضَّر لقول شيءٍ ما، بادرهم السيِّد بالسؤال:

- كيف كان الموسم هذه السنة؟

أجاب الرجل السبعيني بالقول:

- لقد أضرَّ الثلج بالزرع والشجر. كنا خائفين من أزمة تصدير ككل سنة. لم نحسب حساباً للثلج، وماذا بإمكاننا أن نفعل؟ فمنذ سنتين جرفت السيول كل شيء، هذه السنة جاء دور الثلج، نحن لا نعرف ماذا تُخبِّىء لنا السنة القادمة.

أجاب السيِّد وقد بدا عليه التأثر:

- هذه المنطقة لم تعرف شيئاً اسمه الدولة على امتداد تاريخها، لو حدث هذا الأمر في دولة عادلة لجرى تشكيل هيئة طوارىء خاصة لمعالجة الكارثة، فالدولة في النهاية هي جهاز كبير يموِّله الشعب من ماله ورزقه، لكي يقدِّم له في المقابل الخدمات التي يحتاجها، فإذا ما أُصيبت منطقة بكارثة وجب على خزينة الدولة أن تعوِّض على سكانها، هذا المال يدفعه الجميع لأجل الجميع. فالدولة هي عهد بين أفراد الشعب، ولا تصبح كذلك عندما تُميِّز بين المناطق، لقد ظُلمت منطقتكم هذه من قبل الدولة على مر العهود. فكيف اليوم ونحن نعيش في حرب أهلية

بعثرت المؤسسات وشلَّت عملها بالكامل؟ إن واجبنا الشرعي يقضي بألاَّ نترك أهلنا يواجهون الكارثة وحدهم، سوف أحمل قضيتكم إلى مراجعنا ومؤسساتنا المختصة. وسأهتم شخصياً بهذه القضية.

قحقح العجوز، عدَّل جلسته وأبدى رغبةً في الكلام، توقف السيِّد عن متابعة الحديث مُعطياً له الفرصة لقول ما يريد، قال بلهجة جدية:

ـ سماحة السيِّد، هناك مسألة أخرى تهمنا، وقد أتينا إلى هنا لأن هذه المسألة مُلحَّة، وهي لا تحتمل التأجيل، فقد وقع حادث بين شخص من «النبي شيت» وآخر من «بريتال»، كلٌ منهما ينتمي إلى عائلة كبيرة ومعروفة. أدى هذا الحادث إلى إصابة ابن بلدتنا بجروح خطيرة، وهو يرقد الآن في المستشفى. نحن نخشى أن يحصل مكروه للشاب فتهيج النفوس أكثر مما هي عليه الآن. ولسنا نحن فقط من يخشى هذا الأمر. بل إن أهالي «بريتال» وأفراد العائلة الكريمة فيها يخشون سلسلة جديدة من أعمال الثأر التي لا تنتهي، لقد أخبرنا بذلك أحد القادمين من هناك.

سأل السيِّد باهتمام:

ـ ماذا قال الأطباء عن حالة الجريح؟

ـ لقد أُصيب بسكين في أمعائه، وقد أُجريت له عملية جراحية وهو تحت المراقبة.

بدا التجهُّم واضحاً على وجه السيِّد، كان يعتبر عادات الثأر تقاليد بالية ومُتخلِّفة، كما أنها لا تجوز شرعاً، وكان يُحبِّذ لو تُصرف الجهود لمعالجة القضايا الحياتية الهامة كقضية كساد المواسم الزراعية، بدلاً من صرفها على حل المشاكل والنزاعات العائلية. قال موجِّهاً كلامه لأعضاء الوفد:

- علينا أن نتحمل مسؤولياتنا الشرعية في أوقات كهذه، إن تحرككم هذا مبارك، ينبغي علينا أن نتعاون لوأد الفتنة بين أبناء المنطقة، لا يجوز كلما اختلف ولدان أن تتحوَّل المنطقة إلى ساحة حرب، هذا الأمر مُخالف لتعاليم الدين، وهو مُنافٍ للعقل والمنطق، لذا أطلب منكم أن تتولوا تهدئة أهل الجريح وأقاربه في الساعات القادمة، إن نجاة الفتى سيكون خبراً ساراً لنا ولهم، فادعوا اللَّه أن ينجو، ومن المُفيد أيضاً أن ترسلوا أحداً إلى المستشفى لمتابعة الوضع هناك، أرجو أن تبلغوني بأي جديد، سأكون جاهزاً للعمل وإيَّاكم في أي وقت.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً. الأولاد كانوا نائمين، فيما كانت أم ياسر تقوم ببعض الأعمال في المطبخ، حين فرغت من عملها توجَّهت إلى الصالون، كانت تعلم أن الجميع قد خرجوا، وجدت السيِّد يغطُّ في نومٍ عميق وهو جالس في مقعده، راحت تتأمل وجهه

بقلق، فقد بدا عليه الإرهاق الشديد، تذكَّرتْ أن أحد الجيران قضى نحبه نتيجة الإرهاق السنة الفائتة. صحيح أنه كان أكبر منه سناً، لكنه كان في العقد الرابع!

أحضرَتْ على الفور غطاءً سميكاً، وضعته بهدوء على جسده المتُراخي في المقعد، لم تشأ إيقاظه لئلا تُفسد عليه نومه، قبل انبلاج الفجر سُمع إطلاق نار في البلدة، هبَّت أم ياسر من نومها مذعورة، توجَّهت فوراً إلى غرفة الصالون، وجدت السيِّد غارقاً في نومه. بعد قليل تجدَّد إطلاق النار، في هذه اللحظة قُرع الباب بشدَّة، أيقظت أم ياسر السيِّد وقد سمعت صُراخ الأولاد في غرفة النوم، فتح السيِّد الباب للقادمين سائلاً إيَّاهم:

- ماذا جرى؟

قال الشابان وهما يلهثان:

- لقد مات صبحي ابن الحاج محمد، جاؤوا من المستشفى بهذا الخبر، وطلبوا منَّا أن نُبلغك إياه.

قال السيِّد باقتضاب:

- حسناً، أشكركم.

أبلغ أم ياسر عزمه على الخروج فوراً، غسل وجهه، رتَّب هندامه قليلاً، لم يكن لديه مُتَّسعٌ من الوقت لكي يُبدِّل ثيابه، كان ينتظره في باحة المنزل الخارجية مرافقه ورجلان كانا في عداد الوفد الذي زاره ليلاً، كانت أصوات الطلقات لا تزال تُسمع بين الحين والآخر، بدت

وكأنها ولولات استنكار وغضب أو صيحات حزن وألم. توجَّه السيِّد وصحبه إلى منزل ذوي القتيل، كان الناس في هياج، نساء تصيح وتولول، رجال يضربون كفاً بكف، شبَّان يتوعَّدون، مسلحون يخرجون من المنزل ليطلقوا صليات نار في الهواء، كان الموقف حرجاً، فكيف يمكن تهدئة الخواطر وتبريد النفوس في ذروة هذه الإنفعالات؟

إنتبه بعض الرجال إلى وصول السيِّد وصحبه، توجَّهوا نحوه على الفور تسبقهم هيئاتهم المضطربة.

صاح أحدهم بانفعال:

- هل يجوز يا سماحة السيِّد أن يحدث أمرٌ كهذا؟ هل أصبحت أرواح الشباب رخيصة إلى هذه الدرجة؟

وأضاف آخر:

- هل نسكت عن عملٍ فظيع كهذا؟ أي واللَّه سنصبح محل سخرية الجميع.

أردف ثالث وقد تحلَّق حول السيِّد جمعٌ غفير:

- لقد هوجمنا في عقر دارنا، وأفلت القاتل بسهولة، وكأنه كان يقوم بنزهة!

قال السيِّد بلهجة هادئة متعمداً خفض صوته:

- فلنجلس ولنتحدَّث بالأمر كما يفعل العقلاء والراشدون.

دلف الجميع وراء السيِّد إلى الصالون الكبير الذي

كانت أبوابه مشرعة على مصاريعها، راحت الجلبة تهدأ بانتظار ما سيقوله للحاضرين، كان والد القتيل حاضراً، غالب دموعه لكنه شهق فجأةً بالبكاء، شعروا أنه من حقه أن يُطلق العنان لحزنه وألمه.

قال السيِّد:

- صلوا على محمد وآل محمد.

فارتفعت الأصوات بالصلاة:

- اللهم صلِّ على محمد وآل محمد.

سكت الجميع، خيَّم الوجوم على القاعة، شعر الكل بحراجة الموقف، وكأن الزمن قد توقَّف للحظات، وكأن هذه اللحظات كانت مصيرية، قال بصوته الرزين:

- أنتم تعلمون كم يحزننا أن تفقد عائلة كريمة أحد أبنائها في ظروف كهذه، كنا نتمنى لو أن هذه الدماء سالت على أرض المعركة ضد الاحتلال وجيشه. لو أن ولدكم استُشهد كسواه من أبناء البقاع المجاهدين في ساحات القتال والشرف. لكن ما العمل ونحن لا نملك أن نتحكَّم بكل تفاصيل حياتنا. فجبهتنا الداخلية بحاجة إلى سواعد الشباب أيضاً. كذلك إلى عقولهم النيِّرة، إن الحوادث تقع بين أبناء القرى في المنطقة الواحدة، أو بين أبناء القرية الواحدة أو العائلة الواحدة. وإذا ما نظرنا إلى أسبابها نرى بأنها أسباب عفوية ظرفية لا علاقة لها بمكانة هذه العائلة أو تلك، إن

الخلاف البسيط قد يؤدي إلى عمل طائش غير مقصود، وعندما ينفعل أحد الشباب لسببٍ ما تأخذه العاطفة والحميَّة إلى تصرُّفات غير عقلانية، أنا أقول لكم أن أبناء البقاع بشكلٍ عام هم أناسٌ طيِّبون بالفطرة، وهم أصحاب مروءة ونخوة، يشعرون بالفخر والإعتزاز عندما يقومون بأعمال الخير والبر ومد يد المساعدة للغير في أوقات الشدائد والمحن، هل تذكرون يوم جرفت السيول المحاصيل؟ ألم يخرج سكان القرى جميعاً لمساعدة المنكوبين والمتُضرِّرين؟ ألم تشعروا بالإرتياح لهذه الظاهرة؟ إذن لماذا علينا أن نسقط في مثالب أول حادث يقع بين شابين من عائلتين كريمتين؟ لقد وقع الحادث الأليم ولم يعد بالإمكان تفادي نتائجه، أنتم خسرتم شاباً طيِّباً في مقتبل العمر، وهُم وقعوا في ورطة لا يتمنَّاها أحد لنفسه. أتظنون أنهم فرحون بما حدث؟ إنهم جالسون الآن في بيوتهم يتآكلهم الغم والحزن. لو رأيتم وجوههم الآن لوجدتموها مكُفهرَّة لا حياة فيها. لقد كانوا بالأمس، كما كنتم أنتم، يعيشون حياةً طبيعية. لكن، ابتداءً من هذه الساعة انقلبت حياتهم وحياتكم رأساً على عقب، الآن عليهم أن يظلوا مستنفرين، أن يخافوا على أولادهم. أن يتوقعوا في كل لحظة أن يحدث مكروه لأحدهم، أن يُقتل شاب أو امرأة أو رجل لديه عائلة وأطفال، عليهم أن يعيشوا حياةً أشبه

بالجحيم، ولماذا؟ لأن أحد شبابهم قام بلحظة طيش بالتسبُّب بوفاة أحد شبابنا، إن الشرع يفتي بأن ينال القاتل جزاءه. وبأن «لا تزر وازرة وزر أخرى».

تصوَّروا للحظة لو أن العكس هو الذي حدث، لكنتم الآن في موقفٍ شبيه بموقفهم، ولخفتم على أطفالكم وشبابكم من مقصلة الثأر. تلك العادة المجنونة التي تدفع إلى ارتكاب الآثام بحجة غسل العار. إن الحوادث تقع في كل مكان، ولو دأب الناس على الأخذ بالثأر منذ عهد آدم لما بقي بشر على الأرض! إنني أدعوكم باسم ديننا الحنيف أن تكونوا مؤمنين حقيقيين. وأن تكونوا على استعداد للتعامل مع هذه المأساة وفقاً لأحكام الشرع والمصلحة العامة. وأعدكم من جهتي بالسعي من أجل أن يُسلَّم القاتل إلى السلطات المُختصَّة، وسوف تأخذ العدالة مجراها، وإنني أعلم علم اليقين أن إخواننا في «بريتال» سوف يستنكرون الجريمة.

وسيعلنون استعدادهم لقبول أحكام القضاء. أما المصالحة فلن أتحدث عنها الآن. أترك الأمر للوقت لكي يُساعدنا على القيام بما يلزم في هذا الشأن.

ساد هدوءٌ تام أرجاء المنزل بعد أن أنهى السيِّد كلامه، فقد أدى خطابه على ما يبدو إلى تشغيل العقول بدلاً من الأفئدة. كان يُدرك أن المسؤولية الشرعية مُلقاة على عاتقه كعالِم وقيادي ومجاهد. فهؤلاء الناس الطيِّبون

بحاجة إلى علمه وحلمه وحكمته. بحاجة إلى حضوره المُضيء لكي يُنير قلوبهم في ساعات الغم والشدَّة، ولقد أنجدهم في اللحظة المناسبة فهداهم إلى الطريق الصحيح.

جلس الناسُ هادئين بعد أن سمعوا كلام السيِّد، لم تعُدْ تُسمع أصوات الطلقات النارية، ولا الصرخات المُتشنِّجة التي تدعو إلى الأخذ بالثأر.

ألغى أبو ياسر ارتباطاته ومواعيده المقررة لذلك اليوم، اعتبر أن وأد الفتنة من الأولويات الملحَّة على جدول أعماله، مكث في منزل أهل الضحيَّة يواسيهم ويحدِّثهم عن الصبر على المكاره والخطوب. وعند الظهر استقبل وإياهم جثمان الفقيد الشاب. تابع مراسم الجنازة، صلَّى على الجثمان، ظلَّ واقفاً يُراقب اجراءات الدفن. ثم وقف مع أهل الفقيد يتقبَّل العزاء. كان لوجوده أثر معنوي كبير على العائلة المفجوعة. وهو لم يغادر المكان إلاَّ بعد أن حصل على وعد والتزام من الحاج محمد بعدم القيام بأي عمل ثأري بانتظار اعتقال القاتل ومحاكمته. بعدها انتقل إلى «بريتال». وصلها بشكلٍ مفاجىء، من دون أن يُعلم أحداً. ذهب فوراً إلى منزل أهل القاتل، استُقبل بالترحاب. تجمَّع حشدٌ كبير من الناس في باحة المنزل حيث جلس السيِّد وأصحاب الدار، قال الرجل العجوز:

- نريد أن نقول لسماحتك أننا نعتبر أنفسنا في عزاء، لقد تألمّنا لوفاة الشاب، وإننا نؤكد للجميع أن الحادث وقع قضاءً وقدراً نتيجة شجار فوري لا خلفيات له. ونحن حاضرون لعمل أي شيء من أجل وأد الفتنة.

رد السيِّد قائلاً:

- بارك اللّه فيكم. نحن نقدِّر حكمتكم وشجاعتكم وتعاونكم المخلص من أجل حفظ دماء أهلنا وشعبنا. لقد تحدَّثتُ إلى أهل الفقيد. واتفقنا على أن نترك العدالة تأخذ مجراها بواسطة قوى الأمن والقضاء. علينا أن نثق جميعاً بما يحكم به القانون.

هكذا سوف تطمئنون إلى أن ولدكم سيُحاكم بعدالة. وسوف تهدأ نفوس أهل الفقيد أيضاً، إن المصلحة تقضي بأن تُسلِّموا ابنكم للأجهزة الأمنية بأسرع وقت ممكن. وإن تُصدروا بياناً يُعبِّر عن حسن النوايا والتضامن مع عائلة الفقيد. وإنني على استعداد دائم للتعاون مع الجميع في سبيل حل هذه القضية.

شكر الحاضرون السيِّد على جهوده المُخلصة لرأب الصدع بين العائلتين والقريتين.

عاد عصراً إلى «النبي شيت»، قال لأم ياسر أن عليه أن يُغادر الليلة إلى بيروت. فهناك أمور مُستعجلة في انتظاره.

قالت له:

- لا اكتمك أنني خائفة، ففي كل مرة تغادر فيها المنزل أقول في نفسي «لعلها الأخيرة!». لقد شاركت للمرة الثانية في معسكر للتدريب، ولا أدري إن كنتَ ستشارك في معسكرات جديدة. لكنني أعلم أن عمليات التدريب توقع دائماً إصابات، وأحياناً شهداء.

أنصتَ السيِّد بإمعان لكلام زوجته. وعندما رآها على هذه الحال من الخوف والإرتباك قال لها بلهجة فيها شيء من المرح:

- أعدكِ بألاَّ أسقط في مخيم التدريب القادم. فالشهادة تكون موفَّقة أكثر إذا ما كتبها اللَّه لنا على أرض المعركة، لقد شاركتُ في ثلاثة معسكرات للتدريب وليس في إثنين. كان الأول عام ١٩٦٨. كان عمري يومها خمسة عشرة سنة، نمنا ليلتها على الحصى والتراب، لكننا كنا ننام على أحلام كبيرة، تذكَّري يا أم ياسر مأساة أهل البيت. هكذا سوف يصبح غيابي عنكِ وعن الأولاد نقطة في بحر.

كان يدرك أن أم ياسر تحفظ ما يقوله دائماً، وهي تعمل على هدي توجيهاته لثقتها المطلقة بإيمانه وحكمته. وهي حين ودَّعته آخر الليل كانت قد تزوَّدت منه بما يقيها من غدر الزمان والأيام.

الفصل الثالث

كانت السيارات تهبط على الطرقات الجبلية مادةً في الظُلمة الحالكة مجسَّات مصابيحها الكابية. فيما عدا ذلك حجب الظلام تضاريس المنطقة التي كانت غارقة في سكون يقطعه نباح كلب أو هدير محرِّك. وقبل أن ينتصف الليل كان كل شيءٍ هادىء، كانت الأضواء الخافتة قد انطفأت بشكلٍ نهائي، بدت الدساكر الجنوبية الممتدَّة على مساحات شاسعة من السهول والوديان والتلال وكأن بحراً أسود قد ابتلعها. فمنذ أن وطئت أقدام المحتلين الصهاينة أرض الجنوب تغيَّرت عادات وتقاليد كثيرة. لم تعد تقام السهرات والحفلات. ولم تعد الحوانيت تتلكَّأ في اقفال أبوابها ليلاً. لم تعد الساحات والطرقات تشهد حركة سير على الأقدام في الأماسي. كل هذه العادات إختفت فجأةً، ليس بسبب إنقطاع الكهرباء. ولا بسبب البرد. وإنما بسبب وجود جيش غريب مُتحصِّن في أماكن استراتيجية تقطع أوصال المدن والقرى وتقطع أنفاس الناس المُسالمين في بيوتهم. لكن يوماً بعد يوم تكرَّست في المنطقة معادلة جديدة. في النهار يخرج المواطنون إلى أعمالهم، وتدور عجلة الحياة الطبيعية في المدن والقرى، فيستغل جيش الاحتلال هذه الفرصة للتنقل بحرية على الطرقات.

وما إن يهبط الليل حتى تأوي عربات الجند إلى جحورها في المواقع المحصَّنة خوفاً من هجمات رجال المقاومة، هذا الروتين اليومي تعرَّض للخرق مرات عديدة، فقد إندلعت إنتفاضات شعبية «نهارية» أدَّت إلى خسائر غير متوقعة في صفوف المحتلين، كان أكبرها الإنتفاضة التي اندلعت في ذكرى عاشوراء في مدينة النبطية، حدث الأمر يومها على الشكل التالي:

استفاقت شوارع المدينة، كما جرت العادة في العاشر من محرَّم من كل سنة، على اعداد مُتزايدة من المواطنين تتحرَّك باتجاه الحسينية والساحة الكبيرة. كنت ترى النساء والأطفال والشباب والشيوخ وقد خرجوا بثيابهم السوداء فملأوا الشوارع والأزقة والساحات استعداداً للاحتفال العاشورائي الكبير. كانت الأعلام السوداء والخضراء والحمراء ترفرف في كل مكان. وقد رُفعت فوق الشرفات والأعمدة لافتات كبيرة تُحيِّي المناسبة، منها لافتات لو قرأها جنود العدو وفهموا معناها لما خرجوا في ذلك اليوم من حصونهم على الإطلاق، «هيهات منا الذلَّة». «لا يوم كيومك يا أبا عبد اللَّه». «كل يوم عاشوراء كل أرض كربلاء»... إلخ.

بدت الحشود كبحرٍ أسود يموج حول الحسينية، تمايلت فوق الرؤوس المتحركة أعدادٌ كبيرة من الأطفال في عصبات سوداء كُتب عليها: «يا حُسين».

كانت التحضيرات قائمة للبدء في تمثيل مأساة كربلاء التاريخية على المسرح الكبير الذي أُعدَّ خصيصاً لهذه المناسبة، وكانت فرق «الضرِّيبة» قد بدأت بالوصول إلى المكان. أعدادٌ من الشُبَّان تسير في مجموعات وهي تضرب رؤوسها بالنِصال والأكُفْ المفتوحة، فتسيلُ منها الدماء فوق «مراييل» بيضاء. إنه تقليد كربلائي قديم في مدينة النبطية، كان الضاربون يصيحون: «حيدر».. «حيدر». وكانت تتبعهم فرق من لاطمي الصدور وهي تهتف: «يا أبا عبد اللَّه نحن أُمة حزبُ اللَّه».. و«يا حُسيناً ليتنا كُنَّا معك»... الخ.

قُرابة العاشرة بلغت المسيرة الكربلائية ذروتها، فشاركت النساء والفتيات في ترديد الهتافات، كما شارك الأطفال والشيوخ. جابت فرق «الضرِّيبة» و«اللطيِّمة» الشوارع، سالت الدماء غزيرةً كتعبيرٍ درامي عن الاستعداد للتضحية والفداء.

في هذه الأجواء المشحونة بالغضب والألم، تحرَّكت بضع عربات إسرائيلية من موقعها شمالي النبطية قاصدةً الحدود الجنوبية، كان عليها أن تمر وسط المدينة، فأيُّ عدوٍ جاهل ذاك الذي أعطى أوامره بالتحرك وسط ساحة مُلتهبة بالأنين والدماء؟ أم أن عادة استسهال التنقل بحرية والاستخفاف بالناس الضعفاء قد أعمته عن رؤية الحقيقة الأخرى التي لم

يرها بعد؟ مهما يكن فإن العدو أثبت أن بإمكانه أن يكون أحمقاً.

إلتقطت العيون الساهرة لرجال المقاومة تحركات القوة المؤلَّلة. كان رجال الإستطلاع منتشرين على الطرقات المؤدية إلى مداخل النبطية من الشمال. توالت الإتصالات مع القيادة المركزية. أبلغ علي السيِّد بالتطورات المتلاحقة. لاحت أمام القيادة فرصةٌ عظيمة لتلقين العدو درساً لن ينساه، كان تقدير الموقف أن الوضع سينفجر لا محالة في وجه القافلة الإسرائيلية. إلا إذا حدث أمرٌ طارىء أدى إلى تغيير وجهة سير القافلة لا سمح اللَّه. كانت الآمال معقودة على غطرسة العدو واستهتاره بالشعب الأعزل. واكب رجال الاستطلاع تحركات العدو عن كثب، فيما أُعطيت التعليمات لرجال المقاومة المشاركين في مسيرة عاشوراء بالتأهب والإستعداد. كانت مهمتهم سهلة للغاية: إغراق الآليات المُعادية في بحرٍ من البشر، ثم شل حركتها بُغية الهجوم عليها وتحطيمها. لم تلحظ الخطة أي استخدام للأسلحة الحربية إلا عند الضرورة القصوى، تقدَّمت العربات من الطرف الشمالي للمدينة. تم إحصاء عربة مُصفحة وثلاث سيارات جيب وشاحنتين ونصف مجنزرة. رصد رجال المقاومة قائد الموكب في سيارة الجيب الثانية، كان الأمر مُجرد تقدير لم يُثبته أحد

بعد ذلك. لكن القافلة التي لوحظ أنها توقَّفت قبل بلوغ الساحة الرئيسية بمائتي متر، عادت وتحركت من جديد، وقد عنى هذا الأمر أن التعليمات قد أُعطيت بالسير قدماً وسط الحشود حتى ولو أدى ذلك إلى استفزازها أو الدوس عليها. إستعد رجال المقاومة للَّحظة الحاسمة. قال علي وهو يتابع التطورات من غرفة العمليات المركزية: «ها هو العدو يدخل عُشَّ الدبابير برجليه». فوجئت الجموع برتل الآليات وهو يحاول إختراق صفوفها بالقوة. كان من عادة السيارات المدنية أن تُحجم عن السير في هذا الزمان والمكان. وما هي إلا لحظات حتى أطبقت الحشود الهائجة على الرتل. حصل الأمر في ثوانٍ معدودات. قلب المهاجمون سيارات الجيب بمن فيها. مزَّقوا ستائر الشاحنتين. لم يدرِ أحد كيف أشعلوا النيران فيهما بهذه السرعة. دوَّت عيارات نارية من رشاشات إسرائيلية. سقط البعض على الأرض. تعالت صيحات: اللَّه أكبر. اللَّه أكبر. تراكضت الجموع باتجاه الشوارع الداخلية، راحت العربتان المدرَّعتان تُطلقان النار عشوائياً، بعد لحظات تلقَّت الأولى قذيفة آر بي جي أحرقتها. وأصابت الثانية قنبلة يدوية قتلت وجرحت من بداخلها. سُمع صُراخ الإسرائيليين. كانوا يعوون ويجأرون بكل ما أوتوا من قوة. كان عويلهم مرعباً، وقد اختلطت كلماتهم العبرية بنداءات «اللَّه

أكبر» التي كان يُطلقها مذياع الحسينية. بقيت الآليات تحترق في أمكنتها فيما تمدَّدت الجثث على الأرض وسط ألسنة اللهب. إلى أن جاءت إمدادات كبيرة للعدو ترافقها الطائرات المروحية، لكن هذا الأخير لم ينجح، كما جرت العادة، في إخفاء خسائره، فقد تمكَّنت أجهزة الإعلام التي كانت تُغطي احتفالات عاشوراء من مواكبة الانتفاضة «الحارقة» بالصوت والصورة، هذا ما حدث في النبطية ذات يوم من أيام عاشوراء، وقد ذكر رجال المقاومة لاحقاً أنهم ذهلوا لسرعة تحرك الجماهير. فقد تم إحراق العربات في لحظات وجيزة. ولم تتدخَّل عناصر المقاومة إلا في نهاية المعركة عندما فتح الجنود النار على الناس. لقد أنجدت المقاومة جماهيرها في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة.

هذه الإنتفاضة وما تلاها من انتفاضات شعبية اعتبرها السيِّد مرحلة هامة من مراحل حرب التحرير الطويلة التي استمرت دون انقطاع. ولقد عبَّر عن ذلك بقوله: «عندما بدأت العمليات العسكرية النوعية انتقل شعبنا إلى مرحلة جديدة هي مرحلة الانتفاضات، يستهزىء فيها بالعدو ويسخر منه، حتى أصبح الطفل في الشارع يلعب بأعصاب العدو بعد أن كان الجيش الإسرائيلي يلعب بالجيوش العربية كلها».

فيما كان الليل يُخيِّم على دساكر الجنوب، والناسُ

هاجعون في أسرَّتهم يستعرضون أحلامهم، كانت الحركة تدبُّ في أحد المنازل الواقعة على طرف القرية الوادعة. كان المنزل مؤلَّفاً من طابقين أُقيما فوق أعمدة متباعدة. في هذه الفسحة الكبيرة التي يحجب الرؤية عنها من الخارج سورٌ مرتفع، انتشر عددٌ كبير من الرجال. كانت الأرض مليئة بالعتاد وصناديق الذخيرة والخراطيش والألغام والمواد الطبية. وكان الرجال يروحون ويجيئون مُنهمكين وسط العتمة. كانوا يصطدمون بعضهم ببعض، وبالأغراض المُلقاة على الأرض. في إحدى الغرف الداخلية شقَّ سوادَ الليل ضوءٌ خافت. كان عددٌ من الرجال يتلقَّى آخر التعليمات وقد مُدَّت أمامه خريطة. بعد قليل وصل عددٌ من العناصر وسط جلبة شبه مكتومة. قال أحدهم باقتضاب:

- الرجال جاهزون. لدينا مدفعان ويلزمنا مهندس إحداثيات.

صاح صوتٌ أجش:

- إليك بالحاج سمير. قفوا في الخارج وانتظروا الأوامر. هل سمعت؟ لا تتحركوا من دون أوامر!

ثم أردف صارخاً:

- أين خبراء المتفجرات؟ فليتمنطقوا بأحزمتهم. ولينقلوا صناديقهم إلى نقطة الإنطلاق.

كان علي هو صاحب الصوت الأجش الذي راح يجأر

في فضاء الغرفة الضيِّقة. بعد قليل وصل رهطٌ جديد من الرجال كان يتقدمهم السيِّد بنفسه. لدى وصوله تجمهر الجميع حوله وراحوا يصافحونه. قال أحدهم:

- إن حضورك قد أدَّى غرضه. نحن نتمنَّى أن تدعو لنا بالتوفيق من مركز القيادة، أليس كذلك يا شباب!

صاحت الأصوات:

- نعم، نعم.

قال السيِّد بلهجة هادئة ومرحة:

- لكن ماذا لو قرأتُ وإياكم الأدعية فوق «تلة سُجُد» أو فوق «علي الطاهر»؟ عليكم أن تعتادوا على وجود المُعمَّمين في ساحة المعركة. وإلا فإنكم تجهلون صفات هؤلاء الحقيقية!

رد الرجل ذاته:

- نحن نحتاجك في القيادة أكثر. هل تظن أننا بحاجة إلى مزيد من السواعد المقاتلة؟

استحسن الرجال هذا القول. لكنهم أصاخوا السمع ليعرفوا الرد. قال السيِّد:

- هل أرسل الحسين عليه السلام رجاله وحدهم إلى كربلاء؟ إن العلماء ليسوا قادة ومُخطِّطين وحسب. إنهم مجاهدون أيضاً. هل تظنون أن شهادتي خسارة لكم؟ هذا ليس صحيحاً، إن شهادتي ستُذكي الضمائر الحيَّة، وستُرعب الأعداء. أما بالنسبة إليكم فإنها سوف تمدكم

بالعون الإلهي، فهل أدركتم معنى إصراري على المشاركة في العمليات؟

صمت الجميع، بدا أنهم ذاهلون أو حالمون. لكن صوت علي الذي لا يهدأ مزَّق صمت المكان من جديد:

- إليَّ بمسؤولي المجموعات، سوف ننطلق بعد دقائق.

كانت هذه العملية واحدة من أكبر العمليات النوعية التي خطَّطت لها المقاومة. وكان الفصيل الذي ضم في صفوفه السيِّد وعلي هو الفصيل الرئيسي، فيما توزَّع باقي الرجال على فصائل مختلفة بحيث بلغ العدد الإجمالي للعناصر الأربعمائة، كانت الخطة تقضي بمهاجمة جميع المواقع الإسرائيلية في وقتٍ واحد على امتداد عشرين كيلومتراً، في هذا الوقت يتم اقتحام وتدمير موقع واحد كبير.

فُصل السيِّد بأمرٍ من علي، بصفته قائد العمليات، إلى وحدة الإسناد الناري، كان على هذه الوحدة أن تستخدم مدافع الهاون والرشاشات والقذائف الصاروخية لتغطية عمليتي الإقتحام والإنسحاب.

إستغرقت عمليات التمركز أكثر من ثلاث ساعات، كانت الوحدات المهاجمة قد قطعت خلالها ثلثي المسافة نحو الموقع المستهدف. وكان قد انتصف الليل حين هبط السيِّد إلى الحفرة التي تعيَّن عليه المُرابطة فيها، كان ينقل رشاشاً ثقيلاً بقائمتين. وكانت مهمته

تقضي باطلاق النار باتجاه الموقع المواجه عندما تصدر الأوامر.

صعدت القوة المهاجمة إلى قمة الجبل من ثلاثة محاور، كانت الطرقات وعرة وكثيرة الإنزلاقات، وكان الإنحدار شديداً في بعض الأماكن بحيث أُجبر الرجال على الدوران. فيما راحت خشخشة الحصى تحت أقدامهم تنذر بعواقب وخيمة. ولم يخلُ الأمر من دحرجة حجر كبير هنا، أو انثيال تلة تراب هناك أو انزلاق قدم. بيد أن الجميع شعروا بوخز أُبر البلاَّن في سيقانهم وأرجلهم.. كانت التعليمات تقضي بالكمون في المناطق المحيطة بالموقع في انتظار ساعة الصفر.

خيَّم السكون على المنطقة. حتى الكلاب لم تعد تنبح. وكان المقاتلون يسمعون بوضوح دقات قلوبهم. علماً أنهم استراحو لمدة ساعة كاملة لكي يستعيدوا طاقاتهم المهدورة أثناء الصعود. وما إن بلغت عقارب الساعة الثانية والنصف حتى إلتمعت في الليل البهيم ومضات نارية خاطفة أعقبتها أصوات انفجارات متتالية. أزَّ الرصاص فوق رؤوس الرجال الكامنين. راحت أصوات القذائف تنداحُ في المدى الليلي الحالك. تطايرت في سماء المواقع الإسرائيلية القنابل الضوئية الكاشفة. إنها أول ردة فعل على القصف الذي استهدف المواقع. كان على فرق الإسناد الناري أن ترغم الإسرائيليين على

الاختباء في الدشم أطول فترة ممكنة. لكن العدو الذي أربكه اتساع رقعة القصف لجأ إلى مدفعيته الثقيلة في محاولة لتمشيط المناطق. بدت مدافع العدو وكأن جنوناً قد مسَّها. تساقطت القذائف بالعشرات في مناطق متباعدة. لكن رشاشات المواقع بقيت خرساء. فإما أنهم لم يحتاجوا إليها بعد. وإما أنهم مختبئون في الدُشَمْ.

تحرَّكت القوة المهاجمة بسرعة بعد أن توقَّف قصف الهاونات، ثمَّ تقطيع الأسلاك الشائكة بالمقصَّات الفولاذية من ثلاث جهات. بعدها اندفع المقاتلون بكثافة نحو الدشم والخرسانات الباطونية. كانت إحدى القنابل الكاشفة تُنير الموقع مباشرةً. ودل صمت الرشاشات المستمر على اختباء أفراد العدو داخل الدشم. إلا أن المقاومين راحوا يطلقون النار بغزارة ويلقون القنابل اليدوية أمامهم قبل أن يتقدموا إلى داخل الموقع. كانت التحصينات الداخلية مُحاطة بخنادق ودهاليز. فيما كانت دبَّابتا «ميركافا» متوقفتين في باحة الموقع الرئيسية. ضرب أحد المجاهدين برج إحدى الدبابتين بقذيفة صاروخية. خرج جندي إسرائيلي من فوهة البرج وهو يصرخ ويتلوَّى. لكنه سرعان ما خرَّ صريعاً في مكانه. أما الدبابة الثانية فقد تم نسفها بالمتفجرات وكانت خالية من الجنود. سيطر رجال المقاومة بسرعة

على سطوح الموقع. لكن الإسرائيليين ظلوا مختبئين في تحصيناتهم. تلكأ علي في إصدار الأوامر لدقيقتين أو ثلاث لا غير، وهذا أمر ضروري أحياناً لكي يتحسَّس القائد لوحة المعركة بأسرها، ويُنصت ولو للحظة واحدة إليها ككل. فجأةً دوَّت صلية طويلة من رشاش إسرائيلي. حدَّد علي موقع الرشاش، فأُلقيت على الفور قنبلتان يدويتان باتجاهه. توقَّف نُباح الرشاش الإسرائيلي، كما لو كان نُباح كلبٍ مسعور قد غصَّ بعصا. أمر علي باقتحام أبواب المخابىء الأرضية، كانت مموَّهة جيداً. لكن موقع الرشاش المضروب دلَّ على إحداها. تقدَّم مجاهدان إلى الحائط الملاصق للبوابة. ألقى أحدهما قنبلة يدوية إلى الداخل. ثم أطلق المجاهد الثاني صلية طويلة من رشاشه. أنصت علي إلى أصوات الطلقات النارية. وفي تلك اللحظة بالذات هسَّت قذيفة «إينيرغا» في مكان ما من الفضاء. بعد ذلك ظهر أربعة أو خمسة أشباح من وراء عمود الرادار. إتجهوا بسرعة نحو البوابة الرئيسية. كان واضحاً أنهم جنود يحاولون الفرار. رأتهم المجموعة التي اقتحمت الموقع من الشرق، حصدتهم برشاشاتها فتساقطوا أمام الحاجز الحجري كومةً واحدة. نهض أحدهم فجأةً وحاول رمي نفسه إلى أسفل المنحدر. لاحقه المجاهدون وأجهزوا عليه، كان علي يحاول اكتشاف الدهليز الرئيسي الذي يصل

التحصينات بعضها ببعض. وحين عثر على أحد طرفيه أمر بنسفه بالمتفجرات. إثر ذلك ظهر الإسرائيليون من المخابىء كما تظهر الصراصير من البالوعات. وبسرعة مُذهلة راحوا يتساقطون الواحد تلو الآخر. هرب إثنان منهم وتمترسا وراء دشمة. راحا يُطلقان النار على رجال المقاومة، لم تكن في الأمر بسالة. كان الأمر مجرد حشرجة صوتية قبل الموت. فكل ما كان يبتغيه هذان الجنديان المرعوبان هو أن يُسمح لهما بأن يُطلقا سيقانهما للريح. ولكن أنَّى لهما أن ينعما بذلك. أمر علي بتطويقهما وأسرهما. ثم أعطى أوامره لفرقة المتفجرات للقيام بتزنير الموقع تمهيداً لنسفه. حاول الجنديان الفرار. فتم الإجهاز عليهما بسرعة، كان الوقت قد بدأ ينفد، فجمع الرجال ما تيسَّر لهم من عتاد إسرائيلي واستعدُّوا للإنسحاب.

انهمرت القذائف على الموقع من مدافع العدو البعيدة، بدا واضحاً أن جيش الاحتلال قرَّر قصف الجميع بمن فيهم جنوده. أوقعت القذيفة الأولى ثماني إصابات في صفوف المجاهدين. أمر علي رجاله بترك الموقع على الفور. جرى نقل الجرحى على وجه السرعة إلى المنحدرات الصخرية حيث تقرَّر أن يتم الإنسحاب عبرها، بعد ذلك هزَّت انفجارات قوية الموقع. كانت النيران تشتعل في منشآته. فقد تم تدمير الدشم

والتهجيزات وأجهزة الرادار والتحصينات بواسطة المتفجرات.

لاحقت قذائف العدو المجاهدين على سفوح الجبال والوديان. لتظهر الطائرات المروحية. فراحت تجوب السماء بحثاً عن رجال المقاومة. في هذه الأثناء كانت وحدة الإسناد الناري تُغطي انسحاب المقاتلين. فبدأت باطلاق نيران رشاشاتها على الطائرات المُحلِّقة في الظلام. كان من الصعب إصابتها. لكن كان مطلوباً حرفُ وجهتها وإلهائها عن ملاحقة المجاهدين المُنسحبين.

سمع السيِّد وهو في خندقه صفيراً حاداً يقترب منه بسرعة ثم ينفجر بدويٍ يصم الآذان ويبعث في الأنوف روائح كريهة. لم يُثنِ ذلك عن إطلاق صليات متتالية من رشاشه الثقيل باتجاه هدير الطائرات. أنارت في هذه اللحظات قنبلتان كاشفتان سماء المنطقة، شوهد دخانهما الأزرق يتلوَّى خلفهما. بعد قليل همسَّ صوتٌ قوي ومفاجيء فوق رأس السيِّد. ثم وقع شيءٌ ثقيل على بُعد أمتار من مربضه في الخندق. سمع صوتاً أشبه بفتيلٍ يعُس. انبطح على الجانب المقابل لمكان سقوط القذيفة. إلتصقت حبَّات التراب بخدِّه الأيمن وتغلغلت في شعر ذقنه. شمَّ رائحتها الندية الطازجة وشعر بأنها قد أنعشته، انتظر دقيقة كاملة قبل أن ينهض ليُمسك برشاشه ويعاود إطلاق النار. بعد قليل زحفت ظلال

باهتة على تضاريس الأرض تحت القنبلة الكاشفة. أمكن للسيِّد أن يرى مؤخرة القذيفة فوق مستوى التراب. كان بإمكانها أن تقتله على الفور فيما لو انفجرت. لكن العناية الإلهية أنقذته.

نفَّذ المجاهدون خطة الإنسحاب من دون تعديلات. لكن الذي حصل هو أن أحد الجرحى استشهد أثناء عملية الإنسحاب، ثم استشهد جريحٌ آخر لدى وصول المجموعة إلى الوادي. أصدر علي أوامره بتوزيع الجرحى على مجموعتين سوف تتوليان نقلهم عبر الأحراش الجبلية، في هذا الوقت وصلت تعزيزات إسرائيلية بشرية إلى الموقع المدُمَّر، عرف الرجال ذلك من طقطقة الرشاشات التي راحت تُمشِّط الجبل وراءهم. قال أحد المقاومين:

- لن يجرؤوا على اللحاق بنا، وإن فعلوا ذلك سنكمن لهم.

رد علي بقوله:

- علينا تنفيذ الإنسحاب ونقل الجرحى، وعلى المجموعات أن تسير في طرق مُتعرِّجة ولو أدى ذلك إلى هدر بعض الوقت.

عند بزوغ الفجر لم تعثر المروحيات على أي أثر للمجاهدين، واكتفت الوحدات التي استُقدمت إلى الموقع بالتمشيط من بعيد. لقد ابتلعت الوديان والأحراش عشرات الرجال الذن تبخَّروا في الأرض.

الفصل الرابع

«اللهم إني أفتتحُ الثناء بحمدك، وأنت مُسدِّدٌ للصواب بمنِّك، وأيقنتُ أنك أنت أرحم الراحمين...».

بهذه الكلمات إفتتح الشيخ حسين دعاء رمضان. كان طعام الإفطار قد رُفع عند المائدة. وقد تحلَّق حول الشيخ مجموعة مؤلَّفة من سبعة أشخاص، كان بينهم السيِّد وعلي، أما الخمسة الآخرون فكانوا أعضاء في القيادة السياسية، الحاج حسين والحاج أحمد والشيخ محمد والأخ بلال والسيِّد حسن، حدث هذا في أحد منازل حي الرمل في مدينة صور، كانت المدينة قد تحرَّرت من رجس الإحتلال، وكانت تحاول استعادة نشاطها الطبيعي في ظل أوضاع مضطربة في البلد. فالحروب الداخلية المتنقلة جعلت من بيروت عاصمة موحشة ومخيفة. لم يكن العدو مقيماً فيها، لكن روحه الخبيثة كانت تتحرَّك في كل مكان، كانت تتربَّص بالناس الآمنين. لهذه الأسباب لم تكن مدينة صور هانئة تماماً بحريتها. لكنها عرفت كيف تستخدم هذه الحرية من أجل تنظيم وإطلاق أعمال المقاومة في الأرض التي بقيت محتلة، والتي أسماها العدو «بالشريط الحدودي». كان هذا الشريط يشمل كل المنطقة الحدودية، إضافةً إلى جزين وجزءاً من البقاع الغربي.. هنا وفي هذا المكان

المُطل على شاطىء البحر تم التخطيط والإعداد لعمليات المقاومة التي أقضَّت مضاجع العدو. فصور مدينة الحضارة والتاريخ. وهي مصدر الأسرار والعجائب للصيَّادين أصحاب الصولات والجولات في عالم الصيد والبحار.

راح السيِّد يستمع إلى الشيخ حسين وهو يتلو الدعاء. قفزت إلى مخيَّلته صورة المرحوم جدِّه في منزله في «النبي شيت». حدث هذا في مطلع الستينيات، كان صبياً في العاشرة من عمره، وهو يذكر جيداً جلسات الاستماع إلى الدعاء في شهر رمضان.

ويذكر جدَّه كلما قرأ أو سمع تلك الكلمات البليغة التي تُخاطب اللَّه عزّ وجلّ بأرقى عبارات التودُّد والتقرُّب والإعتراف بالذنب وطلب الغفران. كانوا يجلسون في حلقة دائرية كبيرة حول المدفأة المنتصبة في وسط الغرفة. وكان الأولاد في سن السيِّد يبتهجون لرؤيتهم الرجال والنساء الراشدين وهم يقومون «بطقوس غريبة ومُسليَّة»! كانوا ينتظرون بفارغ الصبر لحظة يقول القارىء «إشفِ به صدورنا» لكي يقلِّدوا الكبار في مسح صدورهم باكُفِّهم. وعندما يقول: «بيِّض به وجوهنا» فيمسحون على وجوههم وهم سعداء بهذه «اللعبة» التي يبدو فيها الكبار لأول مرة أشبه بأطفال صغار سُذَّج. فليس من سعادة يشعر بها الطفل أقوى من تلك التي

يختبرها عندما يرى الكبار يتصرَّفون بغرابة. كان «السيِّد الصغير» وأشقاؤه وأبناء أعمامه الصغار ينتظرون بشكلٍ خاص لحظة وقوف الجميع في منتصف الدعاء لمدة دقيقة أو دقيقتين، كانوا يقفون مثل الجميع، فيرفعون أبصارهم إلى الأعلى وهم يتلفَّتون فيَرون القامات العالية المُنتصبة فجأةً عن جانبيهم، كانوا يتمنَّون أن تطول هذه اللحظات إلى أقصى الحدود الممكنة. وكانوا يُطلقون الضحكات خلالها وهم يتغامزون، فيُصوِّب الجد الكبير إليهم نظراته الصارمة محاولاً في ذات الوقت إخفاء ابتسامته. يتذكَّر السيِّد هذه الأوقات الطيِّبة بحنين واشتياق إلى الأزمنة الغابرة. لكن سرعان ما يعود به تفكيره إلى اللحظات الراهنة.

كانت العمليات العسكرية تشتد في شهر رمضان على وجه الخصوص. لذا كان العدو يكره هذا الشهر ويحسب له ألف حساب، كان جنود العدو يتمنون لو أن شهر رمضان يُلغى من الروزنامة، هذا ما قرأه السيِّد في إحدى الصحف نقلاً عن شهادات للجنود الإسرائيليين، لكن في الوقت الذي تحوَّلت فيه صور إلى مركز للتخطيط والإعداد لعمليات المقاومة كانت بيروت تتحوَّل تدريجياً إلى ميدان مُظلم للموت والدمار. تفرَّق سكان العاصمة كالخراف الهاربة من حيوانات مُفترسة. أَوَتهُمْ القرى والبلدات النائية. لم يبقَ في المدينة سوى

مَن لا ملجـــأ له في أي مكان. أو ذاك الذي تعب من الهرب طوال الحرب الأهلية.

قال الطبيب الهارب من العاصمة للسيِّد في أحد اللقاءات: «تحوَّلت غرفة العمليات إلى مكانٍ مُخيف تُمتحن فيه أعصابي. رحتُ اتساءل: أهكذا يكون الجحيم؟ وكنتُ أقول لنفسي: أنا أتعذَّب! إذن أنا موجود! فلمَ العودة إذن إلى تلك الغرفة المشؤومة التي تفوح منها رائحة الدماء، فليست لديَّ أدنى رغبة في العودة إلى دور المُتلقِّي الإنساني الطيِّب في اللباس الأبيض لكي أُصلح ما يُفسده السياسيون والعسكر في الحروب الداخلية الظالمة».

كان هذا الطبيب الهارب من الجحيم يائساً ومُحبطاً. لكن بعد جلستين طويلتين مع السيِّد أبدى رغبةً قوية في الإنضمام إلى رجال المقاومة بصفة طبيب ميداني جرَّاح. لقد كسبت حركة المقاومة واحداً من الأبناء الأبرار الذين آذتهم الحرب الأهلية في الداخل فكادت أن تُحطِّم إيمانهم بوطنهم وقضيتهم العادلة. فبقدر ما كانت الحرب الداخلية بغيضة وظالمة بقدر ما كانت حرب التحرير مُباركة وعادلة.

إنتهى الشيخ حسين من قراءة الدعاء. خرج بعدها مصحوباً بالحفاوة والتكريم. ولقد اعتاد هو على القدوم إلى هذا البيت في شهر رمضان منذ أن حل السيِّد فيه

مستأجراً. إثر خروج الشيخ أعطى صاحب المنزل إشارته فبدأ الاجتماع.

إستهلَّه السيِّد بالقول:

- لا شك في أن تردِّي الأوضاع الداخلية بدأ يؤثِّر على نشاط حركة المقاومة. لقد انخفض عدد العمليات في الشهر الماضي رغم المحاولات التي قمنا بها للفصل بين الجبهة الداخلية والجبهة مع العدو. وقد استغلَّ هذا الأخير الوضع فأرسل عملاءه للعمل خلف خطوطنا. إن مهمتنا تتركَّز على تصعيد العمليات ضمن الإمكانيات المُتاحة. في الوقت ذاته ينبغي علينا إيجاد الطرق المناسبة لتطوير إمكانياتنا. لقد تأثَّرت طرق الإمدادات بأجواء التوتر السائدة. أصبح انتقال العناصر من منطقة إلى أخرى محفوفاً بالمخاطر. ورغم كل هذا الحصار استطعنا توجيه ضربتين مؤلمتين للعدو في أسبوعٍ واحد، لقد وردتنا معلومات من مصادر عدة تقول أن خسائر العدو هي أكبر بكثير مما أُذيع في أجهزة الإعلام، وما ردة الفعل التي شهدناها منه سوى تأكيد على صحة هذه المعلومات. لقد أحرق الجنود آلاف الدونمات المزروعة في القطاع الأوسط، ونتيجة شعور القيادة العسكرية الإسرائيلية بالمأزق دفعت العميل انطوان لحد إلى حد تهديد صيدا بالقصف إذا ما استمرت عمليات المقاومة. إنني أرى أن نوجِّه تحذيراً

قوياً للعدو من أن قصف صيدا هو خط أحمر لن تقبل به المقاومة. وإننا ملزمون في هذه الحالة بالدفاع عن أهلنا في المدينة عبر قصف المستعمرات في الجليل الأعلى بصواريخ الكاتيوشا. فليفهم العدو أننا لسنا في موقف ضعيف وأننا مصمِّمون على تحرير أرضنا مهما كان الثمن. من جهة ثانية حقَّقت الأجهزة الأمنية التابعة للمقاومة إنجازاً هاماً حين ألقت القبض على أحد العملاء الكبار. وقد أفادت التحقيقات الأولية أنه عمل في صفوف العدو لمدة تزد عن العشر سنوات. كان يتنقل ما بين المناطق المحررة والمنطقة المحتلة تحت ستار العمل كسائق. لقد حصلنا على معلومات تفيد بأن العدو يحاود تجنيد الفتيات للعمل في شبكاته الإستخبارية. هذه المعلومات تعزَّزت بالوقائع الملموسة حين اتصلت إحدى الأخوات بالجهاز الأمني للمقاومة للإبلاغ عن ضغوطات تعرَّضن لها لإجبارهن على العمل مع العدو. لقد أبدى بعضهن استعداداً للعب دور العميل المزدوج لصالح المقاومة. هذا الأمر متروك للأجهزة الأمنية. وهو مطروحٌ عليكم للنقاش ككل المسائل التي ذكرتها، أخيراً أود أن أشير إلى أننا سوف نُبقي أمر اعتقال العميل المذكور سرياً إلى أن نتمكن من الوصول إلى جميع أفراد الشبكة. لقد نقلنا موقعاً للذخيرة، وآخر لتزويد المقاتلين بالعتاد من قبيل الاحتياط. وقد

نُضطر لنقل بعض المراكز الأخرى إذا ما وردتنا تعليمات بهذا الشأن من الأجهزة الأمنية.

كان هَمْ المقاومة والمشاكل التي تعترض عملها مستحوذاً بالكامل على النقاش الذي دار في منزل السيِّد في حي الرمل، وقد انضمَّ إلى الاجتماع لاحقاً مسؤولا القطاعين الغربي والأوسط الحاج رضا والحاج ساجد. وحين رفع السيِّد الجلسة كان الطبَّال يجوب شوارع صور معلناً حلول وقت السحور. تفرَّق المجتمعون تباعاً، لم يبقَ في المنزل سوى السيِّد وعلي. بعد قليل دخل أحد الإخوة بصحبة المُرافق، فبادره أبو ياسر بالقول:

- أحكِ لنا، ماذا فعلت؟

قال الشاب وهو ينظر إلى الورقة التي في يده:

- لقد وزَّعنا مواد غذائية وتموينية على ثلاثين أسرة محتاجة. أحصينا ثلاثاً وعشرين عائلة شهيد، وسبع أُسر تأوي أيتاماً. هذه الأرقام تخصُّ حيين فقط من أحياء المدينة.

قال السيِّد:

- جازاك اللَّه خيراً، غداً سوف تُكمل عملك، وسوف أكون في انتظارك بعد الإفطار إن شاء اللَّه. وإن لم تجدني شخصياً سوف تجد من ينوب عنِّي، إذهب حفظك اللَّه. كان علي جالساً فوق بساطٍ سميك وقد

أسند ظهره إلى أريكة. وما لبث أن انزلق قليلاً، مُتَّخذاً وضعيةً مُريحةً أكثر، لكنه عدَّل جلسته بعد ذلك، راح ينتظر السيِّد لكي يقول شيئاً ما. لكن الأخير بدا شارد التفكير، كانت عيناه مُسمَّرتان في اتجاهٍ واحد، لم يشأ علي أن يقطع عليه خلوته الذهنية، فراح ينتظره. بعد قليل قال السيِّد وهو يخاطب نفسه:

- «لو كان الفقر رجلاً لقتلته بسيفي». أتدري يا علي! ما تفوَّه أمير المؤمنين عليه السلام بكلمة إلا وأصاب بها عين الحقيقة.

قال علي مُستفهماً:

- إنني أراك شارد الذهن، فبماذا تفكِّر؟

أجاب السيِّد:

- لقد أخذتني الذكريات إلى النجف. هل تذكر ذلك اليوم من أيام رمضان يوم لم نجد طعاماً نأكله ساعة الإفطار! كم حزَّ في نفسي أن أعود فارغ اليدين إلى بيتي حيث كانت تنتظرني زوجتي وشقيقتي وقد وخزهما الجوع والعطش. يومها وقفنا حائرين لا ندري ما العمل، إلى أن جاء أحد العلماء حاملاً لنا الطعام. وقفتُ يومها مشدوهاً وأنا أتساءل: لكن كيف عرف أننا بلا طعام؟ فأجابني، وكأنه قرأ سؤالي، إنك أنتَ من أرسله. اليوم تذكَّرتُ هذه اللحظات عندما حدثني الشاب عن المحتاجين في صور. تصوَّر أن هناك عدداً كبيراً من

الأطفال المحرومين من الكساء والغذاء والدواء، إنه ظلم ما بعده ظلم.

قال علي وقد أراد أن يمتحن استعداد السيِّد للقيام بعملٍ ما:

- هل تشعر بالنعاس؟

نظر إليه السيِّد نظرة استفهام وقال:

- يبدو أن في جعبتك اقتراحاً ما!

- بالضبط! لقد رتَّبتُ لك نزهة على الشاطىء، فبعد قليل ستهجع المدينة إلى النوم. سوف تكون الشوارع خالية تماماً، وضفاف البحر ستكون مُقفرة إلا من بعض طيور النورس. إنه أفضل الأوقات للتأمُّل واستنشاق هواء البحر البارد. لقد وضعتُ خطة وقائية لتأمين طريق الخروج والعودة بسلام. أدى الرجلان صلاة الفجر، تلفَّح السيِّد بمعطف أسود خفيف، وضع على رأسه ملاءة سوداء تدلَّت أطرافها على كتفيه. بعد قليل خرجا من باب الحديقة الخلفي. كان الهدوء مخيِّماً على المدينة، وفي الشوارع الضيِّقة المؤدية إلى ضفاف البحر عَبَر شبحان غامضان غبش الفجر بخفة ورشاقة. قصدا مباشرة المرتفع الصخري المُطل على البحر من الجهة الجنوبية - الغربية. لفحت وجهيهما على الفور نسمةٌ مُشبعة برذاذ الماء البارد، كان الطقس ربيعياً معتدل البرودة، وقد اختفت مياه البحر البعيدة في الأفق

الرمادي، فيما انتشر ضبابٌ مبعثر على المدى الرحب، في الوقت الذي راح فيه الموج يضرب الشاطىء دون كلل.

قال السيِّد مغتبطاً:

- يا لروعة المكان! بإمكانك هنا أن تعيش لحظات من العمر عاشها الإنسان الأول في كنف الطبيعة الخلاَّبة، إنني أشعر بندى البحر يملأ أنفاسي، وبعطر الكون السرمدي يفتح حواسي على جمال الأرض التي أبدعها الخالق وأعطى مفاتيحها للإنسان.

هتف علي قائلاً:

- لقد جعلتكَ صور شاعراً!

- أعترف أن بحر صور أيقظَ مخيِّلتي، أهاج فيَّ مشاعر الفرح المكبوت في قلبي. إنني أشعر أنها لحظات مسروقة من العمر، كم نحن مشغولون عنها بآلامنا وعذاباتنا وجراحاتنا! كم نحن غارقون بالألم! لا بل كم نحن صابرون على الحرمان لكي نفوز ذلك الفوز العظيم!

وتساءل علي:

- لكن، ألا يحق لنا أن نتأمل في جمال الكون؟

- بل أكثر من هذا، لقد خلق اللَّه الكون جميلاً لنكون على صورته، ومع ذلك فنحن لا نملك الوقت والفرصة لتأمُّل عظمة الخالق، لقد جَعَلَنا ظلمُ الإنسان لأخيه الإنسان نهدر وقتنا وأعمارنا في رفع الغبن ونجدة الضعيف ونُصرة الحق ومقارعة المُحتلِّين والمستكبرين،

فلم يبقَ لدينا وقت للإهتمام بعائلاتنا وأطفالنا، فكيف إذا ما تعلَّق الأمر بالتأمُّل في جمال الكون؟ إن هذا الذي نفعله الآن ما هو إلاَّ ترف زائد نمارسه على حساب وقتٍ ميت هو وقت نومنا، لذا فهو يستحق العناء.

ظلَّ الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث زهاء ساعة كاملة، بعد ذلك عادا أدراجهما يسابقان الشمس التي راحت ترتفع ببطء في سماء المدينة. كان في انتظارهما نهارٌ حافلٌ جديد.

الفصل الخامس

اكتظَّت أروقة المبنى بالرجال. كان يوماً استثنائياً، فمنذ الصباح الباكر بدأ الشباب يروحون ويجيئون. كان هناك من يحمل تحت إبطه ملفات. ومَن يحمل بيده جريدة، أو حزمة أوراق مطوية على شكل عصا غليظة، وكان هناك أيضاً من لا يحمل بيده شيئاً، بيد أن الجميع بدوا مُستعدِّين لحدثٍ وشيك. ضجَّ المكان بالأصوات، تبادل الواقفون في الممرات الأحاديث بحيوية ونشاط ملحوظين.

بعد دقائق معدودات أصبح التحرُّك مُتعذِّراً داخل الأروقة وعلى مداخل الغرف. أعلن صوتٌ فصيح عبر المذياع عن الإستعداد للبدء في أعمال المؤتمر، داعياً الحاضرين إلى أخذ أمكنتهم في القاعة الفسيحة. تحرَّكوا ببطء. استغرقت عملية أخذ المواقع عدة دقائق. بدأ بعدها الضجيج يهدأ، بعد قليل صعد إلى المنصة شابٌ في العقد الثالث من العمر. جلس خلف المنبر، ثم بدأ بتلاوة آياتٍ قرآنية، بعده صعد شابٌ آخر طلب من الجميع الوقوف دقيقة صمت حداداً على أرواح الشهداء، بعد ذلك قال الشاب:

- نُعلن عن افتتاح المؤتمر.

راح المُتحدِّثون يصعدون بالتتابع إلى المنصة. تُليت

تقارير. عُرضت أوراق عمل. قُدِّمت اقتراحات. وبعد استراحة قصيرة جرت نقاشات شارك فيها أشخاصٌ كثيرون. هذه المداولات جميعها كانت نشاطات ضرورية تحضيراً للحدث الرئيسي المُزمع إقامته في المساء. هذا الحدث هو انتخاب أمين عام جديد للحزب.

جلس السيِّد في الصف الأمامي إلى جانب عددٍ من أعضاء القيادة السياسية. لم ين علي عضواً في تلك القيادة. لكنه كان جالساً وسط هؤلاء لأن الموقع الذي شغله في قيادة عمليات المقاومة لا يقل أهمية عن أي موقعٍ آخر في القيادة السياسية. إلا أن هذا العُرف التنظيمي الخاص بعملية الجلوس سُرعان ما جرى خرقه لحظة البدء بنقاش أوراق العمل والتقارير. فكُنتَ ترى أعضاء القيادة منتشرين في الصفوف الخلفية بين الكوادر الحزبية. هكذا فعل السيِّد. وعليٌ أيضاً.

في المساء وقُبيل انعقاد جلسة الإنتخاب المنتظرة كان علي يحاول إقناع السيِّد بالترشُّح لمنصب الأمين العام. وكان الأخير مُصراً على الرفض. كانت حجته أن هذا المنصب يُشتِّت جهوده في اتجاهات كثيرة. بينما هو الآن مُتفرِّغ لقيادة حركة المقاومة. ومن الخطأ أن يتحمَّل مسؤوليات أخرى تُلهيه القيام بما هو أهم في في هذه المرحلة. كان علي يعلم أن أعضاء القيادة السياسية مُجمعون على اختيار السيِّد. وقد تركوا له أمر مفاتحته

بالموضوع. لكنه عندما أدرك أن أبا ياسر مصرٌ على موقفه الرافض للمنصب الكبير إضطر إلى إطلاعه على رأي القيادة السياسية. عندئذٍ قال السيِّد:

- هكذا إذن! لقد حبكوها جيداً. أعرف أنهم لن يسمحوا لي بالرفض. لذا سأقبل ولو مكرهاً. أنت تعرف يا علي كم أحب البقاء في الظل. لكن من الآن فصاعداً سوف تتغيَّر أمور كثيرة. سوف تجد فوق طاولتي ملفات من كل الأنواع والأحجام. سوف يصبح ملف المقاومة واحداً من خمسة أو ستة أو سبعة.

- لكنه سيبقى الملف رقم واحد!

- هذا ما يُعزِّيني.

انتُخب السيِّد بالإجماع أميناً عاماً للحزب. وفي الصباح كانت صوره تتصدَّر الصفحات الأولى للصحف اللبنانية، وخبر انتخابه يُذاع في مستهل نشرات الأخبار في الراديو والتلفزيون.

كُتبت عنه التحقيقات. جُمعت المعلومات الشخصية وغير الشخصية نُشرت المقالات والتحليلات، طُرحت الأسئلة عن خلفياته السياسية والفكرية والدينية، لم تدع وسائل الإعلام شيئاً يفوتها. طاردت التفاصيل، نسجت الحكايات، أشغلت المُخيِّلات.

ضحك علي عندما رأى السيِّد جالساً بإحباط وسط عشرات الصحف والمجلات التي حملت صوره.

قال السيِّد:

ـ هذا ما كنتُ أخشاه.

أجاب علي والابتسامة لم تفارق مُحيَّاه:

ـ بعد أيام قليلة تعود الأوضاع إلى طبيعتها، وقد يحدث هذا بأسرع مما تتصوَّر إذا ما وقعت أحداث مفاجئة تجتذب إليها العاملين في وسائل الإعلام، فهؤلاء يحومون كالنحل الباحث عن رحيق في أي مكان.

احتفلت «النبي شيت» بتبوأ أحد علمائها الكبار منصباً رفيع المستوى، كان الأهالي يعرفون مكانة السيِّد العلمية والدينية والجهادية. لكنهم لم يألفوا على رؤية صوره وهي تملأ الصفحات الأولى للصحف، أو تتصدَّر عناوين نشرات الأخبار في التلفزيون. لم يستطعوا أن يكتموا فرحتهم وشعورهم بالإعتزاز. فتقاطروا إلى منزل السيِّد ليقدِّموا التهاني لعائلته التي فوجئت مثلهم بهذا الحدث. استقبلهم الوالد الكبير مصحوباً بالأشقاء والأولاد. فيما كانت أم ياسر تستقبل الأخوات. لم يتوانَ بعض المتحمِّسين عن ذبح الخراف، بينما قام آخرون بتوزيع الحلوى.

لم يكن السيِّد أو زوجته الفاضلة أم ياسر من مُحبِّي الاحتفالات. لكن العادات والتقاليد في منطقة محافظة كالبقاع كانت أقوى من أن تُخرق، فالناس هنا معتادون على الاحتفال بالأحداث الصغيرة والكبيرة إذا ما كانت

محط فخرٍ واعتزاز. وهم يُظهرون في هذه المناسبات نخوةً وكرماً اشتهرت بهما منطقة البقاع.

أصبح السيِّد في تنقلاته ونشاطاته أسير إجراءات أمنية مشدَّدة، والحقيقة أن هذا الوضع لم يكن جديداً عليه، لكن الطوق أصبح أشد من ذي قبل، فالحرب كانت في أوج احتدامها، والعدو ما برح يوجِّه الضربات على الساحة الداخلية مُستغلاً حالة البلاد الضبابية بعد توقيع إتفاق الطائف، فعلى الرغم من انتخاب رئيسٍ جديدٍ للبلاد، وتشكيل حكومةٍ مركزية جديدة بقيت الأوضاع على الأرض صعبة، وكان على المقاومة أن توجِّه طاقاتها البشرية والعسكرية نحو قتال العدو، في الوقت الذي تعيَّن عليها أن تُراقب عن كثب تحركاته وشبكات مخابراته في الداخل.

إهتمَّ السيِّد بكل شاردة وواردة لها علاقة بأمن المقاومة ومجتمعها الذي تعيش فيه. راح يعمل ليلاً ونهاراً. ترأس اجتماعات القيادة السياسية، ترأس اجتماعات غرفة العمليات المركزية، أشرف على إعداد الخطط والمشاريع ذات الصلة بالعمل المقاوم. أقام الاتصالات السياسية مع القوى والأحزاب والهيئات المحلية والإقليمية والدولية. استقبل المواطنين واستمع إليهم وهم يعرضون مشاكلهم وحاجاتهم. ذهب إليهم بنفسه عندما دعت الحاجة إلى ذلك. حدث هذا يوم ضربت العاصفة الثلجية مناطق

واسعة من البلد. توجَّه إلى المزارعين، عاين الأضرار التي لحقت بمزروعاتهم. أدلى بتصريحات مساندة لقضيتهم طالباً من الدولة الفتيَّة الاهتمام بأوضاعهم. أصدر التعليمات لمؤسسات الحزب للقيام بالواجب في هذا الشأن ضمن الإمكانيات المتوفرة.

وحين وقعت كارثة «وادي أبو جميل» على اثر انهيار مبنى مُتصدِّع على سكانه المهجرين قام السيِّد بزيارة المكان، وقد تألَّم كثيراً لما جرى للسكان الفقراء الذين ذهبوا ضحية إهمال أصحاب المشاريع التجارية والعقارية، إذ تبيَّن أن الجرَّافات العاملة في مشروع تحديث المنطقة ضربت أساسات المبنى فانهار على سكانه.

هذه المأساة تركت جرحاً عميقاً في قلب السيِّد، وقد شعر بأن المعركة في الداخل قد تكون في بعض الأوقات أكثر شراسة. وقد حدَّث علياً عن هذا الأمر في طريق عودته من زيارة «وادي أبو جميل»، قال له:

- هؤلاء الفقراء دفعوا الضريبة عنَّا جميعاً على جبهة المواجهة مع قوى المال والاحتكار العمياء، إنها عمياء لأنها لا تنظر إلى الإنسان الفقير إلا كحشرة صغيرة ينبغي الدوس عليها عندما تدعو الحاجة. ثم سأله: هل أدلى أحد بتصريحات حول الحادث؟

أجاب علي:

- نعم، هناك تصريح لناطق باسم الشركة العقارية

يُحمِّل فيه السكان المسؤولية، وتصريح آخر للمُتعهِّد يقول فيه أن أعمال الحفر حول المبنى المُتصدِّع منذ سنوات لا علاقة لها بانهياره المفاجىء، إلا أن المعلومات المُذاعة، وتلك التي يتداولها الأهالي تتقاطع جميعها عند رواية واحدة: إن الشركة العقارية أنذرت الأهالي بإخلاء المبنى في مهلة قصيرة دون الاتفاق على تعويضات محدَّدة، وعندما رفض هؤلاء أمر الإخلاء ضربت الجرَّافات أساسات المبنى فانهار على سكانه.

دمعت عينا السيِّد وهو يردِّد:

- لقد ماتوا مظلومين.

وبعد لحظات من الصمت أردف قائلاً:

- إن أصعب اللحظات هي تلك التي ترى فيها شعبك يُظلم وأنت عاجز عن نجدته، إن أولوية مقاومة الإحتلال تفرض علينا عدم الإنجرار إلى معارك داخلية كبيرة، إلا أن أهلنا يدفعون ثمن هذا الموقف الحكيم، إنهم شهداء مظلومون، مكانهم الجنة.

بعد حادثة «وادي أبو جميل» أولى السيِّد إهتماماً أكبر لأوضاع الفقراء من أبناء المناطق المحرومة، أعطى تعليماته لدعم المؤسسات والجمعيات الخيرية والإنسانية والاجتماعية، أقام اتصالات بهذا الشأن مع كل الجهات القادرة على مد يد العون والمساعدة، راح يُشرف بنفسه على تنظيم هذه العملية.

وسط هذه الظروف الداخلية السيِّئة حقَّقت المقاومة إنجازات باهرة على أرض المعركة. فبعد العمليات النوعية الكبيرة التي صدَّعت استراتيجية العدو العسكرية القاضية بالاختباء في المواقع الجبلية الحصينة، راحت قيادة أركان العدو تتخبَّط في تحليلات واستنتاجات تُفضي جميعها إلى مكان واحد: المأزق. استبدلت حكومة العدو رئيس أركان الجيش وقائد المنطقة الشمالية وضباط آخرين، وضعت خططاً جديدة لمواجهة رجال المقاومة، قامت بحملة دعائية كبيرة لرفع معنويات الجنود وأهاليهم. زادت من عمليات الإنفاق على شبكات العملاء. بدا أن حيويةً ما دبَّت في جسد الأخطبوط الرابض على الأرض اللبنانية، إلا أن عيون المقاومة كانت صاحية ومفتوحة تراقب كل شيء. فهناك من كان يُراقب مواقع العدو وتحصيناته، وهناك من كان يراقب طرق إمداداته ومواصلاته، ومن كان يراقب حركة العملاء في المناطق المحررة والمحتلة على حدٍ سواء، ومن كان يراقب الحدود الدولية مع فلسطين المحتلة، ومن كان يراقب أجهزة الإعلام الصهيونية من راديو وتلفزيون وصحف، ومن كان يُحلِّل تصريحات قادة العدو السياسيين والعسكريين. هذا التوزيع الإداري ـ اللوجستي ـ المعلوماتي للطاقات والخبرات جعل من حركة المقاومة جهازاً نوعياً مُعقَّداً لصياغة الإستراتيجيات والخطط

العسكرية والأمنية، وسرعان ما ظهرت النتائج على الأرض: مزيداً من الانتصارات لرجال المقاومة، ومزيداً من التخبُّط لجيش العدو. لقد تجلَّت الهزيمة النفسية للعدو أكثر مما تجلَّت هزيمته العسكرية، ليس بسبب قلة الخسائر في صفوفه وإنما بسبب انهيار أسطورة تفوقه التي تطلَّب بناؤها جهوداً مُضنية وأموالاً لا تُحصى، وأكاذيب لا تنتهي.

ضمَّدت نجاحات المقاومة جروح السيِّد الداخلية، جعلته يشعر بالتعويض عما يدفعه الفقراء والمحرومون من أثمان، دفعته للتفكير بزيارة «النبي شيت» بعد انقطاعٍ طويل عنها، ذلك أن للعائلة حقوقاً على راعيها ومسؤولها الأول. وعلى الرغم من أن السيدة أم ياسر كانت تُدرك حجم المسؤوليات التي تمنع زوجها من إعطاء الوقت الكافي لأسرته، إلا أن أبا ياسر كان يشعر بحاجة الأولاد لرؤيته والتحدث إليه، كان هو نفسه يشعر بالاشتياق والحنين إليهم، وبرغبة قوية لرؤيتهم وهم يكبرون.

عبرت السيارة السوداء «ظهر البيدر» متوجِّهة نحو البقاع. كان الليل قد أرخى ستائره الحالكة على الأمكنة المُبللة بالمطر، وكانت مصابيح السيارة تشقُّ بضوئها الضعيف ستار العتمة، فيما راحت حبات المطر تضرب الزجاج وتدخل في عراكٍ شرس مع ماسحات الماء

المولولة. إنها ليلة من ليالي شباط. قطعت السيارة مسافةً كبيرة من السهل الغارق في الظلمة، وحين وصلت إلى «النبي شيت» كانت الساعة قد قاربت العاشرة ليلاً. فوجئت أم ياسر بالزيارة. حاولت كبت مشاعر الفرح التي اجتاحت كيانها، قالت له بعد كلمات الترحيب المعتادة:

- سأعد لك العشاء.

أجابها:

- لا داعٍ للتحضير، سوف آكل أي شيء جاهز.

قالت:

- لدينا مجدَّرة وكشك، أعرف أنك تحبهما.

قال:

- حسناً، سوف أُلقي نظرة على الأولاد النائمين.

وقف يتأمل كل ولد وهو نائم في سريره، ياسر وكميل ومحمد وحسين وبتول وسمية، ذكَّرته وجوههم البريئة أنهم بحاجة ماسَّة إلى أحاسيسه الأبوية. عاد إلى غرفة الجلوس وهو يشعر بالحزن والفرح في آن.

كانت جلسة العشاء حدثاً طلبت أم ياسر من اللَّه أن يتحقَّق فكان لها ما أرادت، فقد عكَّرت مزاجها في الأيام الأخيرة أحلام سوداوية رأت فيها أهوال ومصائب تقع من حولها، وقد استجاب اللَّه لدعائها فأوحى للسيِّد بزيارة عائلته في تلك الليلة الشتائية.

جلسا بالقرب من المدفأة وراحا يتبادلان الأسئلة

والأحاديث حول شؤون الأولاد والعائلة والبلدة وكل شيء. بدا السيِّد نشيطاً رغم علامات التعب التي ظهرت على وجهه. ولم يفُت هذا الأمر أم ياسر، قالت له:

- إنك بحاجة إلى الراحة، أرجو أن تطول زيارتك لنا.

أجابها:

- لقد اشتقتُ إلى الأولاد. تأمَّلتهم وهم نائمون، لقد شعرتُ بأنهم كبروا.

- في الأيام الأخيرة كثُرت أسئلتهم عنك، أرادوا أن يعرفوا لماذا لا تأتي لزيارتهم.

- إنني أشعر بالتقصير إزاءهم، كم أود أن يكونوا بقربي لكي أراهم وأتحدث إليهم كل يوم، إن ابتعادي عنهم هو أكبر ثمن أدفعه على الصعيد الشخصي، لأنه لا شيء أغلى من رؤيتهم سوى رؤية أهل البيت (عليهم السلام).

نام السيِّد تلك الليلة ملء جفونه، فقد كان يعلم أنه الآن بين أحبائه وفلذات كبده. بينما جافى النوم أم ياسر، كانت تنتظر بفارغ الصبر طلوع النهار. أرادت أن ترى الأولاد وهم فرحون بقدوم أبيهم، وفي الفترة القصيرة التي غفت فيها رأت في منامها أبا ياسر وهو يجلس بجانبها في سيارة تسير ضمن قافلة على طريق الجنوب. وإذ بامرأة يهودية تمد يدها من النافذة فتقطع عقداً من اللؤلؤ يلف عنقها، تصحو وقد أقلقها الحلم،

وعندما تُخبر أبا ياسر في الصباح بما رأته في منامها يقول لها:

- سوف أذهب قريباً إلى «جبشيت». سأشارك في الذكرى السنوية لاستشهاد الشيخ راغب حرب، لقد اتخذتُ قراراً بهذا الشأن.

قالت له:

- لن أدعك تذهب وحدك. سوف أرافقك.

قال لها:

- والأولاد؟ من سيعتني بهم؟

أجابته:

- أنت ذاهب في رحلة محفوفة بالمخاطر، ولقد رأيتُ في منامي أنني سأكون إلى جانبك، لقد اصطحب الإمام الحسين عليه السلام أفراد أسرته إلى كربلاء، فإما أن نعود سالمين إلى هذا المنزل وإما أن نعود شهيدين، أما الأولاد فلهم ربهم الذي يحميهم، ألم تقل أنت هذا الكلام؟

- نعم، لقد قلتُ هذا وما زلتُ أقوله.

أشاع لقاء الأولاد بأبيهم جواً من العيد في المنزل، كان نهار عطلة مدرسية، راحوا يسألونه عن كل شيء، أخبروه بكل ما حصل لهم في الشهور الفائتة، راحوا يتأملونه، منهم من راح يداعب أصابعه، ومنهم من تسلَّق إلى كتفيه، ومنهم من استقر في حضنه رافضاً مغادرته. كان سعيداً بهم، إلى درجة أن عينيه قد اغرورقتا بالدموع،

قال في نفسه: «المال والبنون زينةُ الحياة الدنيا». ما أبلغ هذا القول!

لم يكن يعلم أن هذه اللحظات لن تتكرَّر، وإن ساعة الفراق الأبدي عن الأحبَّاء قد دنت، فقيادة أركان العدو كانت قد أعدَّت خطتها، وقد اختارت المجازفة بعد أن مرَّغت المقاومة أنوف الجنرالات الكبار بتراب الجنوب، فكان السادس عشر من شباط من عام ١٩٩٢ يوم الاستشهاد العظيم. يوم ارتفع السيِّد وزوجته الفاضلة وولده حسين ابن الست سنوات لملاقاة ربِّهم مؤمنين طاهرين، إثر غارةٍ بالمروحيات على موكبهم قرب «جبشيت».

في أعقاب هذه العملية الجبانة اشتعلت جبهة الجنوب. كال رجال المقاومة مزيداً من الضربات لجيش الاحتلال الذي عرف كيف يدخل إلى وكر النحل ولم يعرف كيف يخرج منه.